عين المدينة

نبنيــها معاً

www.3ayn-almadina.com
facebook.com/3aynAlmadina

في المدينة...

- عن التحالف وداعش والتدخين ص4
- أثر داعش على صرف الليرة ص6
- النظام يكرّر النفط عشوائياً ص7
- مخابرات داعش ص8
- خريطة الصحّة في دير الزور ص10-11
- حملات التشيّع في مصياف ص12-13
- موظفو "الأزمة" السورية ص14
- تراجيديا جريحٍ أسديّ ص19

عين المدينة | العدد (44) | 1 آذار 2015

مجلة نصف شهرية مستقلة

عدسة ربيع حميدي

المقاتل الوحيد..

هو من يمثّل الثورة، بفوضاه وارتجاله ونزقه وتسرّعه، وغير ذلك من عيوبه التي ينبغي أن تنظّم. ولكن بحرّيته وفدائيته وبساطته وصدقه، وسوى ذلك من مزاياه التي يجب أن لا تُحدّ.

يعاني الجيش الحرّ جراحاً كثيرةً أثخنت قلبه وظهره؛ فقد وصل مستوى التدخل الإيرانيّ والميليشويّ الطائفيّ إلى حدّ القيادة المباشرة لبعض المعارك، فيما يدأب «مهاجرون» غرباء آخرون على خنقه وطعنه من الخلف، حتى لو أدّى بهم الأمر إلى التعاون مع قوّات الأسد من أجل هذا الهدف. فمقاتل الثورة «مرتدٌّ» بزعمهم، وأولى بالقتل من أولئك «الكفار الأصليين»!

أية كفّارةٍ يسدّدها السوريون اليوم عن سنوات الخنوع لنظام الأسد، وعن طيبة القلب التي جعلت منهم ضحايا ساذجين لدعاية حزب الله وأسرى لخطابات زعيمه، ثم معجبين مبهورين بمن أتى لنصرتهم «من أقاصي الأرض»، أخاً بشوشاً ورعاً، لا يطلب سوى مقرٍّ صغيرٍ متواضع، سيتكاثر فيه السواد تدريجياً حتى يطغى ويتجبّر فيصلب ويسفك ويحرق!

هل هذا مما يجب أن نتعلّمه، أيضاً، في طريقنا الشاقّ نحو الحرية؟ بالطبع؛ فالتاريخ لا يحمي طيّبي القلب. ومن لا يتقن اتخاذ خياراته السياسية سيدفع ثمن ذلك. وربما كان الثمن باهظاً جداً كما في حالة مقاتلنا السوريّ، الذي اجتمعت عليه رصاصات وسكاكين وصواريخ «الروافض والنواصب»!

ولكنه الأبقى؛ المقاتل البسيط الذي انشقّ عن قوّات النظام، والمدنيّ الذي حمل البندقية دفاعاً عن أرضه. سيرحلون ويبقى، لأنه على أرضه.

فشلٌ في خطّة دي ميستورا..
وبدء تدريب قوّات المعارضة في تركيا

هيئة التحرير

لم يستطع مبعوث الأمم المتحدة إلى سوريا، ستيفان دي ميستورا، أن يحقّق التقدم الذي أمل فيه قبل زياراته المكوكية الأخيرة. كما أن مبادرته أمام مجلس الأمن الدوليّ حول تجميد الصراع في حلب باتت اليوم غير قابلةٍ للتطبيق، بعد رفض النظام السوريّ لشروط المعارضة التي طلبت توسيع جغرافية الخطة لتشمل أكثر من حلب، في إشارةٍ إلى ريفها الشماليّ الذي يحاول النظام التقدّم فيه يومياً، وحماية البلدات الموالية له فيه.

وعلى الرغم من الوعود التي أخذها دي ميستورا من نظام الأسد، والتي تضمّنت إرسال بعثةٍ من وزارة خارجيته إلى حلب لتقصّي الأوضاع فيها، إلا أن النظام استمرّ في قصف المناطق الخاضعة لسيطرة المعارضة، واستمرّ في إرسال أرتال جنده إلى ريفها الشماليّ، لتكون الخطة التي قال دي ميستورا إنها ستستمرّ لمدة 6 أسابيع غير قابلةٍ للطرح مجدّداً، مع تصاعد المعارك. فيما تبدو تحضيرات الأمم المتحدة لإرسال البعثات الإنسانية إلى حلب، بمجرّد البدء في تطبيق الخطة، غير مجدية.

وفي انتقادٍ للخطّة ولموقف النظام السوريّ منها، قال قائد المجلس العسكريّ الثوريّ في محافظة حلب، العميد الركن زاهر الساكت، إن ما يهدف إليه تجميد الصراع في حلب هو "إنقاذ الأسد" لا أكثر. واصفاً دي ميستورا بالمنحاز، خاصّةً بعد زياراته الأخيرة إلى دمشق، وتصريحه بأن الأسد سيكون حاضراً في مستقبل سوريا.

تدريب 1500 مقاتل معارض سنوياً

بعد مباحثاتٍ بينَ الطرفين التركيّ والأمريكيّ بخصوص تدريب قوّات المعارضة السورية "المعتدلة"، بدأ مدرّبون أمريكيون عملهم في تركيا لتأهيل 1500 مقاتلٍ معارض. ويهدف البرنامج، وفق الاتفاق الأمريكيّ التركيّ، إلى تجهيز هذا الرقم سنوياً، ليتكفّل بمحاربة كلٍّ من تنظيم "الدولة الإسلامية" (داعش) ونظام الأسد، بحسب مسؤولين في وزارة الدفاع الأمريكية.

وستستمرّ خطة التدريب، وفق البنتاغون، مدة 3 سنواتٍ يتمّ خلالها تجهيز جيشٍ مكوّنٍ من 5000 آلاف مقاتل، مدعوم أمريكياً وتركياً. فيما رأت أواسطٌ سياسيةٌ أن الاتفاق الذي وُقّع في أنقرة هو دليل على تقاربٍ بين الطرفين لا أكثر، فيما تختلف أهدافهما في التفاصيل؛ إذ يحدّد الجانب التركيّ الأولوية في رحيل الأسد، بينما يجدها الجانب الأمريكيّ في محاربة "الإرهاب" المتمثل بداعش.

روسيا وإيران واستمرار الدعم المباشر

مع تردّد أنباءٍ مؤكدةٍ عن قيادة إيران للجبهات الجنوبية في سوريا، وتنظيم جسرٍ جويٍّ بين مطاري بغداد واللاذقية لنقل المقاتلين والميليشيات الأجنبية إلى سوريا، يبدو الجانب العسكريّ الروسيّ حاضراً في المعادلة، خاصّةً مع وصول دفعةٍ من المروحيات المضادّة للغوّاصات "كاموف 27" إلى الأراضي السورية، والبدء في استخدامها في ريف إدلب.

فيما تشير مصادر مدنيةٌ إلى أن أسلحةً جديدةً روسية الصنع بدأت بالظهور في أيدي مقاتلي النظام السوريّ في الشمال السوريّ، في حين تبدو بقية الجبهات تحت إدارةٍ إيرانيةٍ مباشرة. وفي هذا السياق قال سليم إدريس، وزير الدفاع في الحكومة السورية المؤقتة، إن "الأحداث تسير باتجاهٍ خطيرٍ للغاية في الجنوب. ونحن نعمل على منع تحقيق أهداف النظام والميليشيات الإيرانية. ندرك أنه لدينا صعوباتٍ واحتياجات، وميزان القوى هو لصالح الميليشيات الإيرانية، لكن مقاتلي الجيش الحرّ هم من أبناء المنطقة الجنوبية، وهذه ميزةٌ تحسب لنا".

فرنسا تستقبل الائتلاف

يلتقي الرئيس الفرنسيّ، فرانسوا هولاند، في باريس، رئيس الائتلاف الوطنيّ لقوى الثورة والمعارضة السورية، خالد خوجة. وقد أرسل الخوجة رسالةً لهولاند شكره فيها على موقف بلاده من القضية السورية، وعلى إصرارها الدائم على رحيل رأس النظام السوريّ، وعدم تهاونها في هذه القضية. وتأتي هذه الزيارة بعد اجتماعاتٍ عدّةٍ عقدها الرئيس الفرنسيّ مع أطرافٍ سوريةٍ مختلفة، منها قياديون في حزب الاتحاد الديموقراطيّ الكردي.

وعلى هامش تلك التحرّكات، نفت فرنسا أية صفةٍ رسميةٍ لزيارة نوّاب فرنسيين إلى دمشق ولقائهم مع بشار الأسد، موضحةً أن ذلك هو قرارٌ شخصيٌّ منهم، لا يعبّر أبداً عن موقفٍ رسميٍّ فرنسيّ.

النظام يفشل في حلب.. وإيران تقود جبهات الجنوب

هيئة التحرير

يشهد ريف حلب الشماليّ تراجعاً يوميّاً لقوّات النظام السوريّ المدعومة بميليشيا حزب الله اللبنانيّ والميليشيات الإيرانية، في مؤشراتٍ باتت واضحةً لفشل خطّة النظام في قطع خطوط الإمداد عن فصائل المعارضة المقاتلة في حلب وريفها، خصوصاً بعد خسارة النظام أكبر مواقع تمركز له في الشمال. فالمعارك التي شنّها على قرى الريف الشماليّ، والتي حققت له سيطرةً سريعةً على بعضها، لم تكتمل نتائجها مع تقدّم الثوّار في المنطقة واستعادة كافة القرى التي تقدّم النظام فيها، مخلفاً مجازر بحقّ المدنيين، كمجزرة رتيان التي قتل فيها 48 شخصاً بينهم نساء وأطفال، أغلبهم ذبحوا بالسكاكين. وفيما سوى ذلك فشل هجوم النظام فشلاً ذريعاً، وخاصّةً في هدفه بفكّ الحصار عن بلدتي نبّل والزهراء الموالیتين بأكثرية سكانهما. وبعد استعادة رتيان، تقدّم الثوار في مزارع الملاح وصولاً إلى باشكوي حيث تجري المعارك في محيطها حالياً، مع حصارٍ يفرضه الثوّار على عدّة مواقع لقوّات الأسد.

وأدّت هذه المعارك إلى مصرع حوالي 140 مقاتلاً من ميليشيات النظام والقوى المقاتلة إلى جانبه، حتى الآن، إضافةً إلى استشهاد 100 مقاتلٍ من فصائل الثوّار المختلفة، ووقع العشرات من جنود الأسد وأعضاء الميليشيات المتحالفة معه في قبضة الثوّار. ولوحظ أن معظم هؤلاء الأسرى هم من أبناء المدينة المجنّدين إجبارياً في صفوف الجيش الأسديّ.

درعا معارك كرٍّ وفرّ

بقيادةٍ شبه معلنةٍ من فيلق القدس الذي يتزعّمه الجنرال قاسم سليماني، تقدّمت الميليشيات الإيرانية، وإلى جانبها ميليشيا حزب الله اللبنانيّ وفصائل من الجيش الأسديّ، في ريف درعا الشماليّ، بعد سقوط المئات منهم بين قتيلٍ وجريح، في ظلّ اعتماد فصائل الثوّار لأسلوب الكرّ والفرّ في تلك المعارك، وتنفيذ عملياتٍ خاطفةٍ وكمائن للقوافل العسكرية الأسدية على الطرقات، في محاولةٍ لامتصاص الهجمة العسكرية الكبيرة.

وركّزت القوات الإيرانية في معاركها جنوباً على مثلثٍ عسكريٍّ أمنيٍّ تهدف إلى إتمام السيطرة عليه، يتألف من المناطق الجنوبية من ريف دمشق الغربيّ، وطريق دمشق-القنيطرة، وأجزاء من ريف درعا الشماليّ، لتكون نقاط تمركزٍ لهجماتٍ على مناطق أكثر عمقاً في درعا. وركّزت هذه القوّات قصفها على بلدة الحراك ومحيطها، فيما لا تزال البلدة تحت سيطرة الثوّار، ولكن محيطها يشهد معارك متقطّعةً منعت القوّات المهاجمة من التقدّم.

وأوضحت مصادر عسكريةٌ معارضةٌ في المنطقة أن عدد قوّات النظام في المعركة قليلٌ مقارنةً بالميليشيات الأجنبية، إذ يقاتل جنديٌّ أسديٌّ واحدٌ إلى جانب خمسة مقاتلين أجانب، من لبنانيين وإيرانيين وأفغان. وتؤكّد هذه المصادر أن قائد لواء "فاطميون" الأفغانيّ، علي رضا توسّلي، قتل أثناء المعارك شمال حوران، ونعته وسائل إعلام إيرانيةٌ، لأن إيران تحتضن ذلك اللواء المكوّن من مرتزقةٍ أفغان يقوم الحرس الثوريّ برعايتهم وتجهيزهم.

جبهة حندرات - عدسة "حلب نيوز"

اللاذقية من جديد

نفّذت فصائل الثوّار المقاتلة في جبلي التركمان والأكراد بريف اللاذقية الشماليّ عملياتٍ عسكريةً متتالية، استهدفت مواقع قوّات النظام وميليشيا الدفاع الوطنيّ في القرى الشمالية للمحافظة مثل سنجوان، إضافةً إلى استهداف مراصد النظام في المنطقة، وإطلاق قذائف على مدينة القرداحة مسقط رأس آل الأسد، التي شهدت تفجيراً بالقرب من مشفاها الوطنيّ أدّى إلى مقتل خمسة أشخاص. فيما أكّدت مصادر معارضةٌ أن عمليات الساحل أدّت إلى مقتل ضباطٍ في الجيش الأسديّ.

داعش تتقدم في الحسكة وتتراجع

اشتدّت المعارك في ريف الحسكة الشماليّ بعد تقدّم تنظيم "الدولة الإسلامية" (داعش)، واقتحامه لعدّة قرىً تقطنها أغلبيةٌ آشوريةٌ مسيحية، قام التنظيم بأسر المئات منها وتهجير الباقين. فيما ردّت المجموعات الكردية المعروفة بـpyd بقصف مناطق تل حميس وتل براك التي تقدّم فيها التنظيم، ثم مهاجمتها بالتوازي مع تغطيةٍ جوّيةٍ من طائرات التحالف الدوليّ، ما أدّى إلى سيطرة المقاتلين الأكراد على بعض القرى، واستئناف محاولاتهم التقدّم جنوباً في الأراضي الخاضعة لداعش.

عن طائرات التحالف، وعن داعش، وعن التدخين

هادي الفيصل

متعتان ليليّتان في بيوت محافظة دير الزور، هما انتهاك قانونَي "الدولة الإسلامية" في منع التدخين وفي تحريم التلفّظ بكلمة "داعش".

رغم اتساع الغرفة، والتهوية المستمرّة من المضيف، كاد هواء الغرفة أن يكون خانقاً. خمسة مدخّنين، وأنا معهم، ننتهز الفرصة الآمنة لنعوّض ما فاتنا خلال النهار من سجائر.

تحمل الأسئلة والأجوبة حول قضية التدخين ألفةً ولذةً، توحّد منتهكي الحظر في طائفةٍ واحدةٍ من عالم تحكمه داعش. يقول رجلٌ، يحاول أن يبدو مطّلعاً على أسرار السلطة الحاكمة، إن "نصف الدواعش يدخّنون"، وإن أميراً أمنياً من قرى الميادين مسجونٌ منذ شهر لتعاونه مع المهرّبين مقابل نسبة. يتشعّب الحديث في نواحي تبغية شتى، في شهوةٍ من الجميع للكلام: "بالبوكمال الناس تدخّن بالشوارع، همّ تابعين لولاية الفرات"؛ "جابولي كيلو فرط من تركيا، كلّ يوم ألفّ لي شوي. والله كيّفت"؛ "وصّلت السيفون وطفّيت المطور. وطلع البيّاع ملثم من القطن. قال لي عندي خمس كروزات، اثنين جلواز وثلاثة ميكادو، خذها بتسع تالاف. وأخذتها". يتباهى المتحدّث الأخير، الذي بدا ذا نفوذٍ في شبكة توزيع التبغ السرّية في منطقته، أن الكروزات الخمسة شكّلت مؤونةً كافيةً له لشهرين. لكن الآخرين شكّكوا في هذه المدّة المبالغ فيها مع فم لا تشبعه أقلّ من أربعين سيجارةً في اليوم، وهو المعدّل الذي ذكره "صاحب الكروزات الخمسة" نفسه في فقراتٍ سابقةٍ من الحديث.

رسمياً، وفق لائحة عقوبات داعش، يُجلد المدخّن "تعزيراً" في المرّة الأولى لإلقاء القبض عليه بالجرم المشهود. لكن التطبيق العمليّ ليس منضبطاً بهذه القاعدة في كثيرٍ من الحالات، بل بحسب درجة غضب القاضي لحظياً، أو رأيه الشخصيّ بالمتهم. فقد يُكتفى ببضع جلداتٍ ونصيحةٍ زاجرة، أوقد يؤدّي الحظّ العاثر للمقبوض عليه إلى أن يصبح حفّار خنادق على جبهةٍ من الجبهات، أو قد ينزلق، نتيجة هفواتٍ منه أثناء التحقيق، إلى تهم أخرى يعدّ التدخين إلى جانبها تهمةً تافهةً. تتحرّى داعش باهتمامٍ أكبر عن تجّار

حرق السجائر في مدينة الميادين بدير الزور

التبغ ومهرّبيه. وتحصل، بشكلٍ دائم، حوادث اكتشاف حمولات تبغٍ في سياراتٍ كبيرةٍ على الطرقات. ويهاجم عناصرها، بين حينٍ وآخر، مستودعات تبغٍ سرّيةً في البيوت. وإضافةً إلى حرق "البضاعة"، يغرّم مالكوها بمبالغ طائلة. ولا تخلو النشرات الإعلامية لمكاتب داعش من صور إحراق كمياتٍ هائلةٍ من صناديق الدخان، كأحد إنجازات "الدولة الإسلامية" التي تحارب ليل نهارٍ "كلّ ما يغضب الله".

في سماء القرية -والقرى الأخرى- حيث كانت سهرة التدخين، يُسمع يومياً هدير طائرات التحالف، وخاصّةً في الليل. كان الهدير في سهرتنا يبعث على القلق، ولكن صاحب البيت طمأنني أن لا أخاف، فـ"طيّارات التحالف ما تضرب بيوت مدنيين مثل طيارات بشار". حين دوى انفجارٌ غير بعيدٍ وقفنا وفتح بعضنا باب الغرفة مستطلعاً موقع الانفجار. "بالبرّية جبلة"، قال الأوّل محدّداً جهة الانفجار بالجنوب. "لا، جزيرة وبحقل العمر"، حدّد الثاني موقع الانفجار باتجاهٍ معاكس. رويداً رويداً تلاشت آثار الطائرة من السماء المظلمة وعادت مجريات السهرة إلى طبيعتها. إلا أن صاحب البيت تأخر قليلاً قبل أن يعود مفسّراً تأخيره بالتأكّد من أن كلّ شيءٍ في المحيط على ما يرام، وأن الباب الخارجيّ قد أغلق بإحكام. يسخر أحدنا من هذا الحذر الزائد، قائلاً إن "الدواعش لن يهبطوا علينا من السماء، طالما الأبواب مغلقة والشبابيك كذلك". لكن آخر يقول إنهم قد يتلصّصون على البيوت المضاءة بالنظر عبر الشبابيك، وخاصّةً بعد غارات طائرات التحالف، بحثاً عن جواسيس محتملين يقومون بإلقاء الشرائح المغنطة لإرشاد تلك الطائرات إلى أهدافها، دون أن يعثروا على أحدٍ من هؤلاء، ولكن ليعودوا في الغالب ببعض المدخّنين عاثري الحظ، ممن كانوا مطمئنين إلى أن "الدواعش لن يهبطوا من السماء".

يُنهي أكبر الحضور سنّاً جدل الهبوط من السماء، مستذكراً جملةً تاريخيةً كان قد سمعها ذات يوم، حين كان مهموماً بدينٍ ثقيل، دفعه إلى أن يهيم على وجهه من قريةٍ إلى أخرى بحثاً عمن يقرضه وهرباً من دائنيه، فقابل بالصدفة "شايب" قال له إن شيئين إن توافرا تهون كلّ مصيبةٍ على قلب الرجل: "السيجارة والشاي". واليوم، يخلص المسنّ إلى أن "مصيبة داعش تهون، ومصيبة بشار تهون، ومصيبة هالطيارات بهالليل تهون" إذا تمكّن الإنسان من الخلوّ بنفسه أو مع أبناء طائفته و"دخّن مع الشاي ثم دخّن مع الشاي".

سجين داعش الذي أنقذ حياته أميرٌ منها

إمام سلمان

"لما كنت مسجون عند داعش بالشدّادي، انفتح الباب مرّة قبل المغرب بشوي، وناداني العنصر: الأمير يريدك".

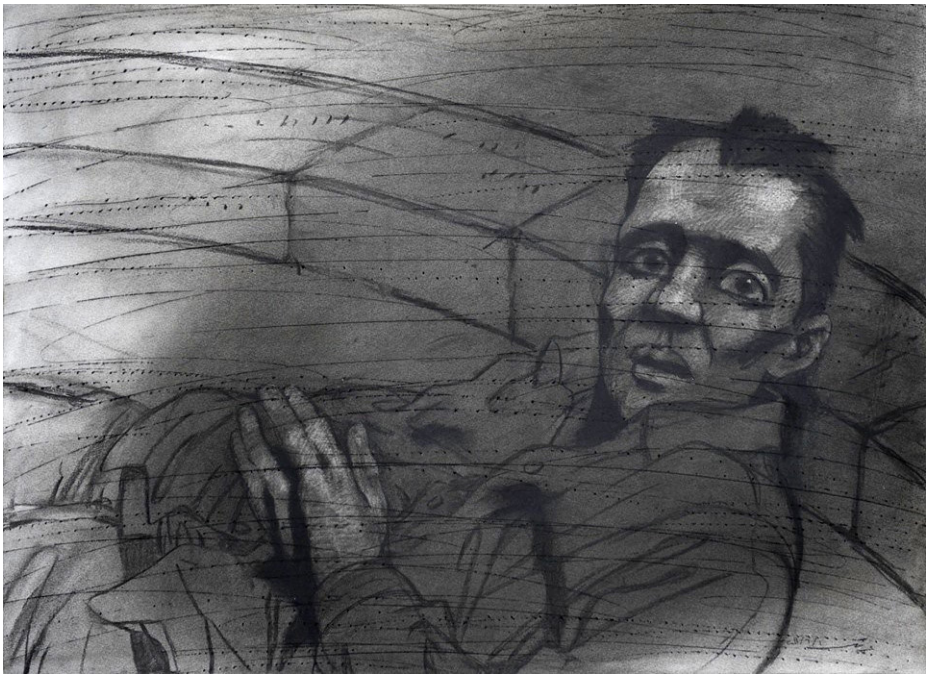

تشبه الأوصاف التي رواها الرجل، الذي يحيط بمعصمه وشمٌ غير شائع، عن سجن داعش الأجواءَ المعروفة عن سجون الأسد، في مقارنة شائعة بين الكيانين الوحشيين. يقول صاحب الوشم المعصميّ إن خصومةً قديمةً مع ابن عمٍّ له كانت السبب في المأزق الصعب الذي وقع فيه، "لولا رحمة الله". أخفى ابن العمّ ذاك رغبته في الانتقام سنين طويلةً، لم تخفّف منها أرباح شراكة تجارة السلاح قبل سيطرة داعش. إلى أن "طوّل ابن عمي لحيته وقصّر جلابيته وصار يحكي لي عن ولاء وبراء". و"بعدين غاب ثلاث شهور بالرقة ورجع لما حكمت داعش الدير". "رحت أسلم عليه، بهدلني عالتدخين وطلعت من عنده زعلان وخايف"، يستطرد الرجل في الحديث عن قلقه خلال الأيام القليلة التي فصلت بين زيارته تلك واعتقاله من قبل داعش. إذ قال له "خاطر الرحمن" أن يطمر كلّ ما في حوزته من ذخيرةٍ وسلاح تحت أرض آمنة، قبل أن تداهم منزله، في القرية على نهر الخابور، ثلاث سياراتٍ محمّلةٌ بالمقنّعين الذين أدخلوا رأسه في كيس ونقلوه خلال ساعةٍ أو ساعتين إلى مكانٍ اختار في تحديده بين حقل العمر النفطيّ وحقل الجبسة في مدينة الشدّادي بريف الحسكة الجنوبيّ. قبل أن يُنقل خطأً -كما علم بعد ذلك- إلى بناءٍ صغير "يشبه بناء الوحدات الإرشادية تبع الزراعة"، ليخبره سجّان مراهقٌ أنه في الشدّادي. يقول الرجل إنه أحسّ برعبٍ شديد، لأوّل مرّةٍ في حياته، عندما فُتح باب الزنزانة وألقى مقاتلٌ من داعش برأسٍ مقطوع "لمرتدٍّ". إلا أن المراهق طمأنهم أن لا يخافوا، فهذا مجرّد رأس مقاتلٍ من الجيش الحرّ رفع السلاح مقاتلاً "الدولة الإسلامية"! وذات ليلة، قبل صلاة الصبح الإجبارية على المعتقلين، عندما سمح له السجّان بالوضوء قبل الوقت المعتاد؛ حدس الرجل أن هذا المراهق يدخّن بالسرّ، مما شجّعه على سؤاله عن إمكانية شراء التبغ، ليجيب السجان بغضب أن هذا ممنوعٌ، قبل أن يتراجع ويعرض السيجارة مقابل مئة ليرة، وهذا ما حدث تلك الليلة إذ سمح للمعتقل أن يدخّن في المرحاض. وهو أمرٌ تكرّر لاحقاً مرّاتٍ عدّة، خُفّض فيها سعر السيجارة مرّةً وراء مرّة، إلى نفدت النقود وصارت السيجارة بالمجّان.

لم توجّه للمعتقل تهمةٌ أو يخضع لأيّ تحقيق، وهي حالةٌ تتكرّر كثيراً في سجون داعش. وبعد ستة أشهر تقريباً من الاعتقال استدعاه أمير السجن وسأله إن كان "قرباطياً" بالفعل، دون أن يسمح له بالردّ. ثم طلب منه أن يقرأ الفاتحة ويذكر عدد ركعات صلاة المغرب. وأخيراً سأله عن تاريخ الوشم على معصمه، دون أن يسمع الإجابة أيضاً. بعد لقائه بأمير السجن علم المعتقل أن سوء تفاهم ما قد وقع، أدّى إلى نقله من سجنٍ إلى آخر. خلال الأيام اللاحقة اعتاد السجّان المراهق على مخاطبته بـ"القرباطي"، دون أن يخفّف التصحيح الدائم من ذلك الاعتياد. "لكن المعاملة تحسّنت شوي"، في الأكل وفي عدد المرّات المسموحة فوق الصلوات الخمس لتجديد الوضوء. إلى أن جاء ذلك اليوم، وفُتح الباب ليطلبه مسؤولٌ ما من داعش، بدا أميراً أعلى من أمير السجن. "كان قاعد قدّام البناء. مشعليله نار وقدامه شول. قال لي اقعد، قعدت. صبّ لي كاسة شاي وقال أنا عرفتك وأنت ما عرفتني وما أريدك تعرفني. اسمع؛ الأخوة مخربطين وأنا سكتت. لكن اليوم أمني عراقي سائل عنك. راحو دوّرو عليك بسجنك الأول بالحقل ما لقوك. وبكرى عالأغلب راح يجون ياخذونك. والأخوة بالسجن هذا محسّبينك قرباطي على هالوشم بإيدك. هسّع راح أفوت جوّى دقيقتين وأرجع ما أريد أشوفك.. انهزم. اكمش هالبرية لحتى توصل الطريق العام، لا تمشي عليه وشرّق".

طبّق معتقل داعش السابق نصيحة الأمير المتعاطف حرفياً، دون أن يعرفه حتى اليوم. ليقطع أكثر من عشرين كيلومتراً مشياً على الأقدام، قبل أن يشفق عليه سائق دراجةٍ ناريةٍ وينقله إلى قريةٍ قرب بلدة مركدة. ومنها تدبّر السجين السابق أمر وصوله إلى حلب فإدلب حيث يقيم اليوم، متربّصاً العودة للانتقام من ابن عمه. وحيث سمع أخباراً غير سارّةٍ من قريته على نهر الخابور حول قتلى من أقاربه انضموا لداعش وقضوا في معاركها الكثيرة، وأقارب آخرين قتلتهم داعش بتهمٍ مختلفة.

داعش والليرة

ملايين الدولارات تُسحب إلى صناديق التنظيم كلّ أسبوع

ثائر العبد

يتجّه مؤشّر الليرة السورية نحو الانخفاض نتيجة التأثيرات المرتبطة بالحرب التي يخوضها النظام ضدّ معارضيه منذ أربع سنواتٍ تقريباً، لتتآكل القوّة الشرائية لليرة بمعدلات تضخم تجاوزت 500%، وهي نسبةٌ تعبّر عن المصير الكارثيّ الذي وصلت إليه العملة السورية. وكما هو معلومٌ، تحدّد قاعدة العرض والطلب أسعار الصرف، وفق تأثير عوامل مختلفة على تلك القاعدة. لتتجسّد هذه التغيرات في نسب هبوطٍ وصعودٍ يوميةٍ في أسواق الصرف الخارجية، في لبنان وتركيا على وجه الخصوص، تنعكس، باختلافٍ طفيفٍ، على أسواق الداخل.

وتعدّ أسواق مدن سرمدا ومنبج والباب والرقة والميادين والبوكمال أسواقاً رئيسية في الأراضي السورية الخارجة عن سيطرة النظام الأسديّ، تشكّل فيما بينها فضاءً مالياً واحداً، يخضع لجملة مؤثراتٍ داخليةٍ وخارجيةٍ مشتركة. وعدا سرمدا، تقع المدن الأخرى في الأراضي الخاضعة لسيطرة تنظيم "الدولة الإسلامية" داعش. ويقدّر عدد محلات الصرف الرئيسية في هذا الفضاء بحوالي المائة، إلى جانب آلاف نقاط الصرف الصغيرة المرتبطة بهذه المحلات. وتقدّر الكتلة المالية الصعبة المتداولة في أسواق صرف ذلك الفضاء -البنكنوت- بحوالي 250 مليون دولارٍ أمريكيٍّ، تتعرّض لتغيّراتٍ يوميةٍ وأسبوعيةٍ طفيفةٍ يصعب تحديدها بدقةٍ في ظلّ غيابٍ شبه كاملٍ لأرقام التجارة الخارجية.

تأثيرات داعش على أسعار الصرف

منذ بروز داعش كلاعبٍ رئيسيٍّ على مسرح الأحداث في سوريا، بدأت تأثيراتها في أسواق الصرف المحلية. وتضاعفت هذه التأثيرات مع اتساع رقعة الأراضي الخاضعة لسيطرة التنظيم، وبالتالي شبكة الموارد المغذية له. ويذكر صرّافون كبارٌ من مدن الرقة والباب والميادين بعض أنشطة داعش المالية، مثل شراء ملايين الدولارات، التي يقدّرها البعض بـ12-8 مليون دولار أسبوعياً -قبل قرار التنظيم حصر بيع النفط بالدولار- مما جعل نزول "ماليّي" داعش إلى السوق حدثاً هاماً قد يرفع سعر الدولار ليرتين إلى ثلاثاً في سوق صرف إحدى المدن عنه في سوق صرف مدينةٍ مجاورة.

ويمكن تحديد أهم تأثيرات داعش على أسواق صرف العملات بما يلي:

1- التأثير الناجم عن قرار داعش بحصر بيع النفط الخام للتجّار بالدولار الأمريكيّ فقط، مما رفع معدّل الطلب عليه. إذ يحرص آلاف التجار، بأحجام مختلفة، على شرائه ليدفعوه لمحاسبي داعش على الآبار، مما يخرج أكثر من مليونٍ ونصف إلى مليوني دولار يومياً من السوق ويدخلها في صناديق مال داعش. ويعود هؤلاء التجار لبيع النفط للتجار الأصغر أو لمالكي مصافي النفط العشوائية بالليرة السورية، ويعيدوا كرّة شراء الدولار من السوق ثم دفعه ثمناً للنفط، مما يجعل الليرة في حالة استنزافٍ دائم مقابل الدولار في هذه الدورة المالية الخاصّة بالنفط.

2- التأثير الناجم عن إزالة الحدود مع العراق. ويعدّ هذا التأثير إيجابياً لصالح الليرة، إذ يفوق حجم السلع والبضائع المنتقلة من سوريا إلى العراق حجم نظيرتها المنتقلة بالعكس، مما يطرح مبالغ كبرى -يصعب تقديرها- بالدولار الأمريكيّ في السوق السورية. إلا أن لهذه العملية آثاراً سلبيةً ستتكشف لاحقاً، إذ إن البضائع المصدّرة إلى العراق ثمينةٌ، ومنها ما هو غير قابلٍ للتعويض (كبعض سلالات الماشية)، بالمقارنة مع تلك الآتية منه. فضلاً عن التأثيرات السلبية المباشرة بارتفاع أسعار بعض السلع الرئيسية في سوريا نتيجة هذا التصدير.

3- رغم الغموض الشديد والسرية في حجم إنفاق داعش على أجهزتها العسكرية والمدنية في سوريا والعراق، إلا أن التقديرات تشير إلى أن نفقات جزئها العراقيّ أعلى من جزئها السوريّ. مما يعني خروج كتلة دولارٍ كبيرةٍ من السوق السورية، ونهائياً، إلى السوق العراقية، باعتبار أن موارد داعش المالية من الجزء السوريّ أكبر بكثير من مواردها في الجزء العراقيّ. ليتشكل عاملٌ سلبيٌّ آخر، غير ملاحظٍ مباشرةً، يؤدّي بدوره إلى تآكل قوّة الليرة.

4- تدفع داعش جزءاً هاماً من كتلة رواتب منتسبيها بالدولار الأمريكيّ. وينفق هؤلاء رواتبهم في مصاريف معيشتهم اليومية، مما يعيد إخراج جزءٍ من كتلة الدولار في صناديق داعش إلى الأسواق.

حرّاق نفط دير الزور الجديد

عصام زهر الدين يفتتح صناعة نفطٍ عشـــوائيّةً في حقـل المهـاش

هند عبد اللطيف

أقدم نظام الأسد على خطوةٍ غريبةٍ في الأجزاء الخاضعة لسيطرته من دير الزور، تمثلت بتشغيله لمصافٍ نفطٍ بدائيةٍ "حرّاقات" في محيط حقل المهاش النفطيّ -7 كم جنوب غرب المدينة- بالتزامن مع تشغيل بعض الآبار في هذا الحقل.

ولجأ النظام إلى هذه الخطوة بعد عجزه عن تأمين المحروقات اللازمة لعمل قطّاعاتٍ حيويةٍ في أجزاء المدينة الخاضعة لسيطرته، في ظلّ الحصار الخانق الذي يفرضه تنظيم "الدولة الإسلامية" منذ شهرين على هذه الأحياء، مما حرم النظام وأجهزته الحكومية من الاستفادة من المشتقات النفطية المنتجة في الريف الخاضع لسيطرة التنظيم، وأدّى إلى أزماتٍ خانقةٍ عانى منها السكان في أحياء الجورة والقصور وهرابش، البالغ عددهم قرابة 300 ألف نسمة، نتيجة توقف العمل نهائياً في جميع أفران الخبز في تلك الأحياء، وندرة المواد الغذائية.

وذكر موظفون حكوميون أن ورشاتٍ تابعةً لشركة سادكوب الرسمية، ترافقها سياراتٌ تابعةٌ لقائد الحرس الجمهوريّ بدير الزور، عصام زهر الدين، عملت خلال الأسبوعين الفائتين على إنشاء 13 مصفاةً صغيرةً، أو ما يعرف بالحرّاقة، في الأماكن الأكثر بعداً عن خطوط التماسّ من محيط حقل مهاش النفطيّ. في حين عمل مهنيّون على تشغيل بعض آبار ذلك الحقل تشغيلاً جزئياً، وبطريقة تقترب من الطرق العشوائية الشائعة في الحقول الخارجة عن سيطرة النظام، وبمعدل إنتاج يتجاوز 200 برميلٍ يومياً من النفط الخام الذي ينقل مباشرةً إلى حرّاقات النظام المستحدثة، التي تعمل وفق مبدأ إشعال النار تحت خزانات الخام و"غليه" إلى درجات الحرارة التي تنفصل معها مكوّنات النفط، وبمردود (70% مازوت + 10% كاز + 20% مخلفات تستخدم لحرق الطبخات الجديدة من الخام).

تعدّ آبار حقل المهاش آباراً شديدة الخطورة، نظراً لاحتواء النفط المستخرج منها على معدّلاتٍ غير مقبولةٍ من غاز كبريت الهيدروجين H2S وبنسبة (36) PPM، في حين لا تتجاوز النسب المسموح بها في أعمال النفط (10–15) PPM. ويعدّ هذا الغاز شديد السمّية نظراً لآثاره القاتلة للبيئات الحية وتأثيراته الخطرة على الجهازين العصبيّ والتنفسيّ للإنسان. وكان حقل المهاش، في سنوات ما قبل الثورة، مثار جدلٍ كبيرٍ في الأوساط الصحية في مدينة دير الزور. ورُفعت دعاوى قضائيةٌ بحقّ الشركة السورية للنفط المشغلة له، التي ورثته عن شركةٍ فرنسيةٍ أوقفت عملها فيه لانخفاض جودة الخام المستخرج منه، قبل عشر سنواتٍ. ويضاعف من المخاطر البيئية والصحية لإعادة تشغيل بعض آبار هذا الحقل وقوعه على مسافةٍ قريبةٍ جداً (3 كم) من مشفى "الأسد"، المشفى الوحيد في الجزء الخاضع لسيطرة النظام بدير الزور، وقربه من الأحياء السكنية في الجورة والقصور.

وجد نظام الأسد في "صناعته" النفطية هذه منفذاً للتملص من تقديم جزءٍ من مخصّصات قوّاته من المشتقات النفطية، المنقولة جواً، لمساعدة المدنيين الواقعين تحت سلطته.

غاز ديـــر الـزور إلى العراق

خليل عبد الله

رغم وجود أكبر معملٍ سوريٍّ للغاز في دير الزور، واستمرار إنتاج هذا المعمل وفق تفاهمات داعش والنظام، الا أن سكان المحافظة يعانون مشقةً كبيرة للحصول على أسطوانة غاز.

بعد سيطرة داعش على دير الزور، ومحاولاتها إنشاء تنظيم مركزيٍّ لتوزيع الغاز المنزليّ، من خلال وحدات التعبئة المتنقلة -من الصهاريج مباشرةً- وفق برنامج زمنيٍّ محدّد؛ تراجعت الحصّة المخصّصة لولاية الخير/ دير الزور، من الغاز، ليغدو دخول أسطوانةٍ ممتلئةٍ منه إلى منزلٍ ما مناسبةً سارّة.

يبلغ معدّل إنتاج معمل غاز الطابية - كونيكو- 2000 أسطوانةٍ يومياً، كان نصفها على الأقلّ يوزّع في دير الزور، ويذهب النصف الآخر إلى المناطق الخاضعة لسيطرة داعش من المحافظات السورية الأخرى. وقبل ثلاثة أشهرٍ أو أكثر، بحسب ما يذكر عمالٌ في قطّاع النفط، قرّر التنظيم تخصيص نصف الإنتاج اليوميّ للمدن العراقية. وابتدع نظام توزيعٍ جديدٍ للنصف المتبقي، ميّز بين نوعين من مستحقي الغاز المنزليّ، هما "الأخوة" من أعضاء التنظيم و"عامّة" المسلمين. وقد حظي كلّ واحدٍ من "الأخوة" بأسطوانة غازٍ شهرياً، في حين ترك "العامّة" يتدبّرون أمرهم كيفما اتفق، وبحسب ما يتيحه مزاج أمراء الغاز.

يبلغ السعر الاسميّ المحدّد من قبل داعش لأسطوانة الغاز 800 ليرةٍ (3.5 دولار أمريكيّ)، تتيح مورداً يومياً لا يقلّ عن 7000 دولارٍ تدخل صناديق داعش. في حين تنشط شبكة سوقٍ سوداء، يتحكم بها مقرّبون من التنظيم، يتجاوز سعر الأسطوانة فيها 2500 ليرةٍ، أي 10 دولارات.

مخابرات داعش
استنساخ التجارب بلا طائل

علي خطاب

حرص تنظيم الدولة الإسلامية، في الفترة الأخيرة خاصّةً، على استخدام تسمياتٍ رنانة، في إصداراته أو أثناء احتكاكه بالأهالي، للإيحاء بالقدرة الفائقة والتنظيم العالي الذي لا يُغفل أيّ تفصيلٍ يخصّ "دولةً" قويةً، لا ينقصها أيّ شيءٍ لتجابه الدول الأخرى. ومن تلك التسميات (المخابرات). لكن المراقب على الأرض لا يجد شيئاً من هذا الاسم، غير بعض المحاولات الشخصية للأمراء والقادة للسيطرة على الأهالي، عن طريق أدلاء ومخبرين من بين الأهالي أنفسهم، لا ينتظمهم جهازٌ يعمل على جمع المعلومات والإفادة منها في الوقت المناسب، كما هو معروفٌ عن أجهزة المخابرات في أيّ مكانٍ من العالم.

وقد بدأت تلك المحاولات -في مدينةٍ ليس للتنظيم فيها جذورٌ اجتماعيةٌ، كدير الزور- بعرض الصفقات على أصحاب المخالفات الصغيرة، حين يتكرّر اعتقالهم. وتكون الصفقة بالإفراج عن المتهم ومنحه مبلغاً مالياً، مقابل إدلائه بمعلوماتٍ مهمّةٍ أو إيقاعه بأشخاصٍ معيّنين. يقول أحد الذين عُرضت عليهم تلك الصفقة من قبل أمير الحسبة التونسيّ: "حبسوني أكثر من مرّة مشان الدخان.. آخر شي قال لي الأمير إذا تشتغل معانا أعطيك ثلاثة آلاف ليرة عن كلّ بياع دخان تدلنا عليه". وتعقد تلك الصفقات تصاعدياً؛ أي أن المدخنين يجنّدون للإيقاع بالباعة الصغار، ويجنّد هؤلاء للإيقاع بالتجار، وهكذا. ويتغاضى الأمراء عن المتعاونين، طالما ليس لعملهم أيّ أثرٍ سياسيٍّ أو عسكريٍّ على المدى البعيد. ومن هذه الناحية، درج أولئك القادة على بثّ عناصرهم بين كتائب الجيش الحرّ -حافظت بعض كتائبه على سلاحها واستمرّت في قتال قوّات الأسد تحت سلطة داعش- لاستدراجهم ومراقبة تحرّكاتهم خارج الجبهات. ويتّبع العناصر (الجواسيس) طريقةً خبرها السوريون مع نظام الأسد، وهي إبداء الاستياء من التنظيم لبثّ الراحة بين الجلساء. وعن هذا يقول أحد المقاتلين: "يبعثون شباب يسبّون الدواعش قدامنا تا يورطونا". ويتابع ضاحكاً: "ويسألونا شلون ينضمّون للكفن الأبيض! العمى على هـ الجحاشة عينك عينك". وبحسب ناشطين اعتقلوا سابقاً، يلجأ الأمراء إلى بثّ جواسيسهم بين السجناء كذلك، لتلقّط أخبارهم العامّة أو الخاصّة، ومواجهتهم بها أثناء الاستجواب، لإيهام المتهم بأن "مخابرات الدولة تعرف كل شيء إلا الغيب"، كما يحلو للشرعيين أن يكرّروا في التحقيق.

ولأن المخالفين قد يشكّلون، في بعض الأحيان، بؤراً اجتماعيةً مغلقةً بعيدةً عن أنظار التنظيم، فقد سعى أمراؤه إلى اختراقها عن طريق الزواج أو الصداقة. مما فتح الباب للكثير من الحكايات عن علاقاتٍ مشبوهةٍ تجمع بعض الأمراء بالمنبوذين اجتماعياً، كما في حالات علاقات مهاجرين -من مصر وتونس خاصّةً- بتجار حشيش ومومسات. وفي حالات زواج عدّةٍ استغلّ الأمراء أنسباءهم من الأطفال والنساء لجمع المعلومات والقبض على المخالفين. كما يقول بعض الذين صادر التنظيم سلاحهم إن تجّار الأسلحة أنفسهم هم الذين وشوا بهم، وإن هؤلاء التجار يملكون رخصاً من التنظيم، تسمح لهم ببيع السلاح وشرائه.

وبعيداً عن التجنيد المباشر، وعن العلاقات الشخصية التي يستخدمها الأمنيون والعسكريون والإعلاميون لاختراق التجمعات الأهلية وإعادة ترتيبها وفق الولاء للتنظيم؛ هناك عمليات تجنيدٍ طوعيٍّ من قبل البعض، تدفعهم إلى ذلك خشية العقاب أو الطمع بالمال والحظوة. وبحسب أحد الناشطين فهؤلاء هم "الأكثر خطراً"؛ فعناصر داعش غرباءٌ عن المدينة عموماً، إذ يحرص التنظيم على إبعاد أفراده عن وسطهم الاجتماعيّ، خوفاً من خروجهم عليه أو مسايرتهم لأعراف الوسط، ولذلك فهم يجهلون المدينة جهلاً تاماً، ولكن المتملقين والمنافقين و"طقيقة البراغي" هم أدلاؤهم على الناشطين والإعلاميين والمقاتلين السابقين، أو العاملين في الخفاء. وفي بعض الأحيان "يفتّحون عيونهم على شغلات ما يعرفونها ولا مدوّرين وراها". ويدلل الناشط على ذلك بما يحصل في المكتب الطبيّ الموحّد، فالعاملون فيه، الذين يعتقلهم التنظيم بسبب نشاطاتهم، يكون زملاؤهم "حفروا جوّاهم" ووشوا بهم، ليأخذوا مكانهم في المكتب. وقد حصل الأمر ذاته من قبل الكثير من مقاتلي جبهة النصرة السابقين، الذين صاروا يقدّمون الخدمات مجاناً "لمن هم على حقّ"، كما يقولون.

لا يهتمّ قادة التنظيم كثيراً، كما تبيّن للأهالي، بالخطيئة والفضيلة، بقدر اهتمامهم بالبقاء. الأمر الذي يبدو جلياً في إعادة تدوير المخالفات والخلافات وتوظيف أصحابها في استئصال أية بذورٍ للمقاومة ضدّ داعش.

داعش توقف رواتب الأئمة

وتحوّل مساجد ريف حلب إلى مراكز دعايةٍ وتجنيد

ميلاد بهنو

لم يكن في حسبان أيٍّ من أئمة أو خطباء مساجد منبج أنهم سيضطرّون ذات يومٍ إلى ترك خدمة بيوت الله والانشغال بتأمين لقمة العيش لعائلاتهم.

مع احتلال تنظيم داعش لريف حلب الشرقيّ، قبل أكثر من عام، وقع العشرات من أئمة وخطباء ومؤذني المَساجد تحت رحمته. ولم يبدِ مسؤولو التنظيم تقديراً يذكر لأيٍّ من حملة شهادات العلوم الشرعية من بين هؤلاء، بل أظهروا استخفافاً بتلك الشهادات، وعدّوها جزءاً من تراث النظام البعثيّ تارةً، أو أنها بلا فائدةٍ تذكر، تارةً أخرى. واتهموا حملة هذه الشهادات، وطلاب العلم الشرعيّ في المعاهد والكليات الدينية السورية، بأنهم مفتقرون إلى المنهج، وأن علومهم باطلةٌ لأنها تعطّل الجهاد. وكما هو معلومٌ، اضطرّت الحاجة إلى دفع شرور داعش كثيرين من هؤلاء إلى اتباع الدورات الشرعية التي أقامها التنظيم، بعد أن أعلنوا توبتهم وتبرّؤهم من "الضلالات والردّة" التي وُصفوا بها، ومن غير تمييز، من قبل داعش. وبعد هذه التسوية الإجبارية استأنف كثيرٌ من موظفي المساجد عملهم، مع التأكيد على هيمنة داعش المطلقة على المساجد.

يقول أحد الأئمة من ريف حلب: "يعتبرنا التنظيم خطراً كبيراً عليه؛ فنحن، أصحاب الشهادات العلميّة في الشريعة، نعلم بتفسير النصوص والأحاديث والأحكام الشرعيّة والحدود. ولأننا خطباء مساجد عمد التنظيم إلى التنكيل بكلّ من كان منّا يناصر الثورة بفعلٍ أو بقول، وأجبرنا على مبايعته".

ويضيف الإمام: "نفّذ الكثير من المشايخ شروط التنظيم، البعضُ منهم رغبةً وآخرون أجبروا. ولأنّ الوضع الاقتصاديّ في غاية السوء اغتنم التنظيم هذه الحالة، مقدّماً رواتب للمشايخ على أن يكونوا خطباء مساجد وأئمةً مقابل 12 ألف ل.س شهرياً، غير الوعود بحصص غذائيّة وما شابه ذلك من مكافآت".

وبعد تأخر رواتب هؤلاء لأكثر من ثلاثة أشهر، بدأوا بمطالبة التنظيم؛ فتوجهوا أولاً إلى ديوان الأوقاف بريف حلب، الذي ماطل دون أن يبيّن سبب هذا التأخير. مما دفعهم إلى التوجّه إلى بيت المال الذي أجابهم أن سبب التأخير هو تعليمات الأمير العسكريّ بوقف كلّ النفقات غير القتالية. ليتوجّهوا أخيراً إلى مكتب الأمير العسكريّ الذي نصحهم، بحسب ما يقول أحد الحضور، أن "يتقوا الله، فلن يموتوا من الجوع". وقد أدّى ايقاف المرتبات الشهرية إلى موجة استقالاتٍ "ودّية" في صفوف المؤذنين والأئمة والخطباء، الذين اضطرّوا إلى ذلك تحت وطأة الحاجة. "فليس سهلاً -بحسب ما يقول البعض منهم- أن يتحوّل المرء من خدمة بيوت الله إلى افتتاح بقالية". لم تبدِ داعش اهتماماً بهذه الاستقالات، لأنها لا ترى للمستقيلين أية ميزةٍ على أقلّ شرعييها علماً. وعملت على سدّ الفراغ بتعيين المنتمين إليها، دون تدقيقٍ في مدى أهليتهم لتولي الإمامة أو الخطابة. ويتندّر سكان منبج بحوادث عدّةٍ تكشف جهل الخطباء الجدد، وشدّة تبجيلهم لخليفتهم البغدادي على المنابر: "يخطئ بعض الخطباء أحياناً في قراءة بعض الآيات، ويتعثرون في نطق بعض الكلمات، مما يشير إلى قلة تأهيل. أما الخليفة فهو حاضرٌ في كلّ جملةٍ، تقريباً، من الخطبة"، يعلّق طالبٌ جامعيٌّ من منبج على واقع الجوامع وخطبائها الذين "يدفعون المصلين إلى النوم أو العبث بعيداً عن ما يقوله الخطيب على المنبر". وبحسب الطالب الجامعيّ تدور معظم كلمات الخطباء الجدد حول الحضّ على الجهاد في صفوف جنود الخليفة، والتآمر العالميّ على "الدولة الإسلامية"، والظلم الشديد الواقع في حقّها من قبل الأعداء.

دورة شرعية في أحد مساجد منبج - من إصدارات التنظيم

استخدمت داعش المساجد في المناطق الخاضعة لسيطرتها لأغراضها الخاصّة، وحوّلتها إلى ما يشبه مراكز التجنيد والتحشيد وتأكيد حضورها وسلطتها في هذه المناطق. وبلغ الأمر بمتولّي حسبة داعش أن يسجّلوا جداول للمصلين الحضور في بعض المساجد، بحسب ما يتحدّث بعض سكان ريف حلب. وتحوّل المسجد إلى مكانٍ خطرٍ يحذَر منه الآباء والأمهات على أطفالهم، بسبب دروس غسيل الدماغ المستمرّة في معظم أوقات النهار. وهذا أحد العوامل التي دفعت بعض السكان إلى النزوح، وخاصّةً مع ما يتردّد من شائعاتٍ عن نية التنظيم فرض التجنيد الإجباريّ على الشبّان والمراهقين في المناطق الخاضعة لسيطرته.

خريطة الخدمات الصحيّة في محافظة دير الزور

من مديرية الصحّة إلى منظومة الخدمات الحرّة إلى ديوان داعش الصحيّ

تقرير خاصّ

عملية جراحية في مشفى الكسرة - ريف دير الزور الغربي

ابتداءً من حزيران عام 2012، وحتى الشهر نفسه من عام 2014، وهي المدّة بين تحرير معظم أجزاء محافظة دير الزور ثم احتلالها من قبل داعش؛ تمكن النشطاء الطبّيون في المحافظة من بناء منظومة خدماتٍ صحيةٍ عامةٍ شكّلت، إلى حدٍّ كبير، بديلاً فعالاً عن منظومة الصحة الحكومية، التي تراجع دورها وتآكلت بنيتها لأسبابٍ عدّة، أبرزها سياسة العقاب الجماعيّ التي انتهجها النظام ضدّ سكان المناطق المحرّرة، والآثار المختلفة للحرب على هذه المنظومة. فخرج عن العمل كلٌّ من مشفى الفرات والمشفى الوطنيّ في الجزء المحرّر من مدينة دير الزور، نتيجة وقوعهما في ساحات المعارك أو على خطوط القتال. ثم خرج عن العمل لاحقاً كلٌّ من المشفى الوطنيّ في الميادين ومشفى الباسل في البوكمال، قبل أن يعاود الأخير نشاطه بشكلٍ جزئيٍّ ومرتبك. في حين تولى النشطاء الطبيون تشغيل وإدارة مشفى الطبّ الحديث في الميادين، بعد أن تخلت مديرية الصحة عن رعايته، وكذلك الحال بالنسبة إلى مشفى التوليد في الكسرة بالريف الغربيّ لدير الزور.

وفُصل من الوظيفة، لأسبابٍ سياسيةٍ، أكثر من 2000 موظفٍ من ملاك مديرية صحة دير الزور البالغ 7500 موظفٍ، بحسب مصادر موثوقة من هذه المديرية. في حين توقف أكثر من 3500 موظفٍ ما زالوا ضمن ملاك المديرية -يستلمون رواتبهم الشهرية منها- عن القيام بوظائفهم بشكلٍ فعال. ويصعب تقدير الأضرار التي لحقت بالبنية التحتية لمنظومة الصحة الحكومية السابقة، ولكن بعض الوقائع، مثل سرقة أو تدمير تجهيزات الأقسام الطبية المختلفة في كلٍّ من مشفى الفرات والمشفى الوطنيّ بدير الزور، وفقدان 33 سيارة إسعافٍ من ممتلكات مديرية الصحة، وسرقة محتويات أكثر من 60 مركزاً ومستوصفاً في الريف؛ تحدّد، وبشكلٍ تقريبيٍّ، درجة هذه الأضرار. ليقتصر عمل مديرية صحة دير الزور -التابعة للنظام- على المشاركة في جهود حملات اللقاح العامة مع منظماتٍ دوليةٍ وناشطين طبيين محليين.

منظومة الصحة الحرّة

بلغ عدد المؤسسات الصحية المستحدثة من قبل الثوّار 18، بين مشفىً ومركز عياداتٍ ومستوصف، توزّعت عفوياً على جغرافيا المحافظة، وتفاوتت في درجة الكفاءة، وكذلك في قدرتها على الاستمرار بعد تأسيسها بحسب توافر الكفاءات الطبية والظروف السائدة في كلّ بلدةٍ أو مدينة. تضاف إلى تلك المجموعات وحدة الإسعاف السريع التي اختصّت بنقل الجرحى ذوي الحالات الحرجة من الجزء المحرّر لمدينة دير الزور إلى مستشفيات الريف ذات الإمكانات الأفضل نسبياً، أو إلى معبر تلّ أبيض الحدوديّ مع تركيا.

في المراحل الأولى من عمل هذه المؤسّسات الناشئة كان للتبرّعات الأهلية لأبناء كلّ منطقةٍ دورٌ هامٌّ في استمرار عملها، قبل أن تتولى منظماتٌ دوليةٌ رعاية كلّ مؤسسةٍ على حدة، وبشكلٍ منسّقٍ إلى حدٍّ ما، مع تسجيل أخطاءٍ وثغراتٍ تبدو طبيعيةً في ظروف الحرب. إلا أن الفضل الأكبر للنجاحات التي حققتها هذه المؤسّسات يعود إلى كوادرها بأدائها المتفاني والشجاع. إذ عمل كثيرٌ منهم، ولأشهرٍ طويلة، دون أجر، في ظروفٍ شديدة الخطورة. ولا سيما في الأجزاء المحرّرة من مدينة دير الزور وفي مدينة موحسن القريبة من جبهة المطار.

وبالرغم من غياب جسم جامع، أو مكتب مركزيٍّ للتخطيط والتنسيق ومواجهة الجوائح والأمراض المستوطنة، وتولّي رعاية المصابين بالأمراض المزمنة، وتوفير بعض التجهيزات ذات الطبيعة المركزية، مثل بنك الدم ووحدات الرنين المغناطيسيّ ووحدات الكلية الصناعية المعروفة بغسيل الكلية وغير ذلك من الأنشطة؛ لعبت هذه المنظومة دوراً بطولياً في تقديم الرعاية الصحية لسكان المناطق الخارجة عن سيطرة النظام، بالنظر إلى مجموع عدد عامليها المنخفض مقارنةً بحجم الأعمال والأنشطة والخدمات المقدّمة. اذ لم يتجاوز مجموع من عملوا في هذه المنظومة 400 شخص، بينهم أقلّ من 80 طبيباً من أصل 1152 مسجّلين في فرع نقابة الأطباء في دير الزور قبل الثورة. فعلى سبيل المثال، تكشف سجلات مشفى موحسن الميدانيّ تقديمه لأكثر من 25 ألف خدمة طبية، بينها أكثر من 400 عملية جراحية، خلال النصف الأول من العام 2014 فقط. وهي أرقامٌ دالّةٌ على ضخامة العمل المنجز من قبل فريق المشفى، وكذلك حال بقية المستشفيات.

وبطبيعة الحال، لا يمكن إهمال الدور الموازي الذي لعبه القطاع الطبّي الخاصّ، الذي خفّف من الأعباء الملقاة على كاهل المنظومة الحرّة. فقد لعبت خمسة مشافٍ خاصّةٌ في مدينة الميادين، وثلاثةٌ في البوكمال وواحدةٌ في العشارة، دوراً موازياً لدور تلك المنظومة، بالرغم من عملها المأجور ولكن الذي راعى، إلى حدٍّ ما، الظروف الاقتصادية الصعبة في معظم الحالات. وكذلك كانت للعيادات الطبية الخاصّة مساهمتها الفرعية، وإن في نطاق محدود، وخاصّةً في مدينة الميادين التي تحوّلت إلى عاصمة فعلية للمحافظة.

داعش وأثرها على الواقع الصحيّ

في الأشهر الأولى لسيطرة التنظيم على محافظة دير الزور، أشاع مؤيدوه وأعضاؤه أنباءً إيجابيةً عن عدم نيته التدخل في الشأن الصحيّ. إلا أن الأشهر اللاحقة كشفت زيف هذه الأنباء؛ إذ أسّست داعش ما يسمّى بديوان الصحة، الذي ترأسه ممرضٌ سابقٌ -يؤكد بعض من احتكوا به مهنياً أنه لا يمّت حتى إلى التمريض بصلة- من غير أبناء المحافظة. وعملت على تقسيم جهازها الصحيّ قيد الإنشاء إلى أربعة أجزاء (قواطع، بحسب تقسيمها الإداريّ لولاية الخير/ دير الزور) يترأس الحقل الطبيّ في كلٍّ منها أحد أعضاء التنظيم. ويعمل تحت هذا المسؤول أعضاءٌ ثانويون في كلّ مؤسّسة طبية، فرضتهم داعش على هذه المؤسسة ليداوموا فيها بشكل مستمرٍّ، دون أن تكون له أو لهم أدوارٌ مهنيةٌ واضحة. ويؤكد نشطاء طبّيون أن هدف هذا الإجراء هو فرض الحضور والهيبة والمراقبة كذلك، تمهيداً لابتلاع داعش لكلّ المؤسسّات القائمة وتحويلها إلى جزءٍ من جهازها الصحيّ الذي يبدو متعثراً ومرتجلاً حتى في حال اكتماله.

ويمكن تحديد أبرز قرارات وأعمال داعش في الحقل الطبيّ بما يلي:

1- منع جميع المنظمات والجهات المموِّلة من رعاية أيٍّ من المؤسّسات الصحية أو التعامل معها بأيّ شكل.

2- منع أطباء النسائية من مزاولة عملهم.

3- افتتاح مشفى عباد الرحمن في قرية جديد عكيدات، وإجبار أطباء المنطقة وممرّضيها على العمل فيه جزئياً وفق برنامج يغطّي كلّ أيام الأسبوع.

4- رعاية بعض النقاط الطبية المتعثرة وتقديم رواتب شهرية للعاملين فيها.

5- الاستيلاء على مشفى هجين -حكوميٍّ حديثٍ وغير مفتتح- وإعادة تشغيله بتمويل وإدارة مباشرة من التنظيم. وجاري الآن إعادة تأهيل المشفى الوطنيّ في الميادين، لتشغيله كمشفىً خاصٍّ بالأمراض النسائية والتوليد.

6- في الأسابيع الأخيرة، أقدمت داعش على إغلاق بعض المؤسّسات القائمة، بذريعة تردّي خدماتها والنقص في كوادرها.

تمارس داعش، من خلال مندوبيها المنتشرين في كلّ مركز طبيٍّ أو مشفىً، تضييقاً شديداً على كادر العمل الأصليّ فيها. وكذلك تستخدم الإغراء الماديّ بعرض رواتب عالية على الأطباء والممرّضين والفنيين المهرة مقابل انضمامهم إليها أو ما يعرف بالبيعة. ولم يفلح أسلوب داعش ترغيباً أو ترهيباً إلا في استقطاب عددٍ محدودٍ جداً من الممرّضين، في حين لم تنجح إلا في إقناع طبيب واحدٍ بايع التنظيم مؤخراً، بحسب مصادر خاصّة وموثوقة. وأدّت ممارسات داعش في القطّاع الطبيّ، وكذلك جوّ الخوف والإحباط العامّين الذي جلبته معها، إلى موجة نزوح إضافية لبعض العاملين في هذا القطّاع.

لا يُتوقع أن تجبر داعش العاملين الطبيين الذين يشغّلون المؤسّسات القائمة على بيعتها قسراً، أو أن تقدم على تحويل هذه المؤسّسات إلى أجزاء عضوية من جهازها الطبيّ قيد الإنشاء. ذلك الجهاز الذي لن يكتمل، بحسب خطة داعش، إلا بتخريج الدفعة الأولى من طلاب كلية الطبّ التي افتتحتها مؤخراً في محافظة/ ولاية الرقة، وفق معلوماتٍ خاصّةٍ حصل عليها معدّو هذا التقرير.

جدولٌ بالمستشفيات القائمة في محافظة دير الزور*

المشفى	المكان	عدد الأطباء الاختصاصيين	عدد الأطباء العامّين	عدد الممرّضين والفنيين	عدد سيارات الإسعاف	ملاحظات
فارمكس	دير الزور	3	5	12		ميدانيّ. خدمت منظومة الإسعاف السريع (5 سيارات) عمل فارمكس والشيخ ياسين.
الشيخ ياسين	دير الزور	1	_	8		ميدانيّ. خدمت منظومة الإسعاف السريع (5 سيارات) عمل فارمكس والشيخ ياسين.
موحسن الميداني	موحسن	5	3	35	2	ميدانيّ
الطب الحديث	الميادين	10	4	70	2	حكوميٌّ سابقاً، واستأنف النشطاء الطبيون تشغيله.
البوكمال	البوكمال	7	3	30	2	حكوميٌّ سابقاً، واستأنف النشطاء الطبيون تشغيله. تراجع العمل فيه مؤخراً إلى حدٍّ كبير.
بقرص الميداني	بقرص	4	1	30	2	ميدانيّ
القورية	القورية	4	_	24	2	دار توليدٍ حكومية سابقاً، حوّلها النشطاء الطبيون إلى مشفى.
الكسرة	الكسرة	4	_	18	1	أنشأته مديرية الصحة، وحال اندلاع الثورة دون افتتاحه، ليشغله ناشطون طبيون بعد ذلك.
الخريطة	الخريطة	3	_	12	1	ميدانيّ
التقوى	الصالحية	3	_	20	1	ميدانيّ

* حُدّدت المؤسّسات الطبية على أنها مشفى بحسب قدرتها على القيام بعملياتٍ جراحيةٍ بشكلٍ مستمرٍّ في مقرّاتها، وبعيداً عن الأوصاف التي أطلقها بعض النشطاء الطبيين على المؤسّسات المفتتحة.

مندوبو إيران في مصياف تهديدٌ وجوديٌّ لمجتمعها

المشيخة الإسماعيلية عاجزة، وحملات التشيّع "الاثني عشريّ" على قدمٍ وساق

سنان الفقيه

يبكي لنا الصفصاف/ فنحنُّ كالناقة
تابوتنا مصياف/ والقبر ورّاقه

من الذاكرة التي تبحث عن إنشاءٍ حزينٍ يلائم أحوال المدن في سنوات الكآبة والضياع، تأتي قصيدة الراحل ممدوح عدوان عن مصياف.

في الوسط غسان إسماعيل، شيخ الطائفة الإسماعيلية في مصياف

هادئةٌ حتى الآن رغم الحرب المستعرة في محيطها غير البعيد، لكنها حزينةٌ حزناً أعمق من أشرطة السواد المائلة في أعلى صور القتلى المنتشرة على جدرانها، وأعمق من البكائيات الطارئة مع موجة المؤمنين الجدد على طريقة متطرّفي "الوليّ الفقيه". همومٌ مصياف ثقيلة، يقول الرجال الأكثر فهماً لما يجري في المدينة، أثقل من تخاصم فردين، معارض ومؤيدٍ للنظام من عائلةٍ واحدة، كحالِ بيوتٍ كثيرةٍ في مصياف، ومن شكاوى ربة منزلٍ من الغلاء أمام دكان خضار. فـ"المذهب في خطر"، يلخّص مثقفٌ متوسط العمر ما ستحمله موجة التشيّع الهادئة والسريعة في آنٍ واحد، فهي تهدّد "بقاء الطائفة الإسماعيلية بوجهها المتسامح والمتنوّر الذي عرفت به"، وتلحقها بمشروعٍ هدّام تستخدم "أطماع السياسة فيه الدين". أنه "مشروع إيران" التي أعادت تأهيل جيوب الشيعة في سوريا بما يوافق مصالحها، وقادت حملات تشيّع جديدةً بين أبناء الطوائف الإسلامية، مستغلةً مخاوفهم التي فشل الخطاب العام للمعارضة السورية في تهدئتها. يقول رجلٌ كان حاضراً لشكاوى المثقف إنه: "يكفي توقف قدّام جامع الرسول الأعظم لحتى تعرف أنه مصياف اليوم غير مصياف امبارح". و"امبارح" هي عقود ما قبل الثورة، حين عُرفت المدينة بطبيعةٍ اجتماعيةٍ اتسمت بالتسامح ونبذ التعصب وإهمال الجوانب المثيرة للشقاق والفرقة من التاريخ. يقرأ الإسماعيليون الماضي على أنه تاريخٌ محضٌ، في حين "يقرأه الغلاة على أنه دين". وهنا الفرق. وهنا خوف المثقف وصديقه وكثرٌ من أبناء مصياف على مذهبهم، "لا تعصباً لمذهب بعينه"، وإنما حفاظاً على هويةٍ تشكلت خلال حقبٍ تاريخيةٍ مختلفةٍ وتحت تأثيراتٍ شتى، "لنكون الأكثر تسامحاً وهدوءاً وحباً للحياة، بعد أن كنا الأكثر تعصباً واستخفافاً بها". بدت جملة مضيفنا الحزين عن هوية بلدته فخورةً بعض الشيء، لكنها تنطوي على حقيقة.

المقاومة العقائدية

يرفض أحمد، وهو شابٌّ يعتني بلحيته السوداء، أن يرتشف من كأس البيرة المقدّم له على الطاولة التي اضطرّ إلى الجلوس إليها لشأنٍ من الشؤون مع قريبه الأكبر سناً الذي بدأ مناكفته بالسؤال عن سبب رفضه لشرب البيرة. يبتسم الشابّ ويجيب بجملةٍ واحدة: "نحن ما بنشرب". مين أنتم؟ يستنكر القريب صيغة الجماعة في عبارة الشابّ الذي أجاب بدوره: "المقاومة العقائدية"، ناطقاً قاف الكلمتين ألفاً. ولا يقف التشبّه بصيغة الحزب اللبنانيّ عند حدود النطق، بل يتعدّاه إلى إلحاق لقب الموسويّ إلى الكنية الأصلية.

كان أحمد خريج معهدٍ متوسّطٍ يبحث عن عملٍ وقت اندلاع الثورة. وكان مهتماً، بحسب ما يقول قريبه، باقتناء الأفلام الأجنبية وتبادل الطرائف المصوّرة على الجوّال.

لكن حياته تغيّرت بعد إنشاء ما يسمّى بـ"المقاومة العقائدية" وافتتاح فرع لها في مصياف، لتجتذب مئاتٍ آخرين من شبّان المدينة لم تكن قصص حياتهم تختلف عن قصة أحمد. يتداول المطلعون على شؤون هذه الميليشيا معلوماتٍ عن ارتباطها العضويّ بحزب الله، وعن محدودية تأثير أجهزة نظام الأسد، الرسمية منها والأمنية، على هذه الميليشيا التي تألفت من أبناء الطائفة الشيعية فحسب أو من المتشيّعين الجدد. وتبدي "المقاومة العقائدية" سلوكاً منضبطاً ومنظماً إلى حدٍّ كبير بالمقارنة مع الميليشيات الأخرى ذات الأجسام المحدّدة مثل الدفاع الوطنيّ، أو العشوائية مثل مجموعات الشبيحة المتفلتين من كلّ ضابط. يبدي بعض سكان مصياف تحفظاتٍ أقلّ نحو "المقاومة العقائدية"، إذ يسوقون جملة مبرراتٍ لمنتسبيها، منها رغبة كثيرٍ من الشبّان في الإفلات من الخدمة النظامية في جيش الأسد، وخاصّةً مع رواتب شهرية مرتفعةٍ بالمقارنة مع رواتب مجنّدي ذلك الجيش. وكذلك رغبة بعض أبناء الطائفة الإسماعيلية في الانتماء إلى جسم ذي بأسٍ ونفوذٍ مثل هذه الميليشيا التابعة لحزب الله، في وجه الممارسات الإجرامية للشبّيحة المتحدّرين من ريف مصياف القريب. وتؤكّد الأرقام المنقولة عن بعض منتسبي هذه الجماعة أن عدد أفرادها تجاوز 400 في مدينة مصياف لوحدها، إضافةً إلى آخرين اكتفوا بالإيمان بأفكار هذه الجماعة دون الانتساب إليها.

من تبليط الأرضيات إلى المنبر

ربما كان الشيخ الشابّ غسان إسماعيل، شيخ الطائفة الإسماعيلية في مصياف، وقبله سلفه الراحل الشيخ منصور، الرجل المعمّم الوحيد في المدينة. إلا أن بروز شيخٍ آخر هو عمار الهيبة، قائد حملات التشيّع في مصياف، جعل فيها أكثر من عمامةٍ وأكثر من رداءٍ مشيخيّ. قبل ثماني سنواتٍ كان الهيبة "جلّاء" بلاطٍ نشطاً، ينتقل بورشته من بناءٍ إلى آخر. لم يكمل الرجل تعليمه الثانويّ لكنه أتقن مهنة عائلته بسرعةٍ ومهارةٍ أهلته للفوز بمقاولةٍ صغيرةٍ لإنجاز أعمال البلاط والأرضيات في جامع الرسول الأعظم الذي كان قيد الإنشاء بتمويلٍ إيرانيٍّ. لم يفوّت الهيبة الفرصة، بحسب ما يقول مطّلعون على سيرته، إذ أدرك أن استثماراً بكراً مثل العمل الدينيّ مع مندوبي إيران مقاولةٌ ناجحة، وخاصّةً مع قلة المنافسين في مدينةٍ لا يعدّ التديّن من أولويات سكانها بشكلٍ عامّ. لينتقل الهيبة، وبعد تأهيلٍ سريع، من جلي بلاط الجامع إلى الوقوف على منبره خطيباً اثني عشرياً. ثم ليغدو رجل إيران الأوّل في مصياف وعددٍ من البلدات والقرى التابعة لها.

اثنا عشريّون جدد، من جامع الرسول الأعظم في مصياف

يميّز المهتمون بتاريخ التشيع الاثني عشريّ في مصياف ثلاث محطّاتٍ هامةً في ذلك التاريخ؛ الأولى بعد وراثة بشار الأسد للسلطة خلفاً لأبيه عام 2000، وما تلا ذلك من نموٍّ متزايدٍ في النشاط الدينيّ لإيران في سوريا. والثانية بعد حرب حزب الله مع إسرائيل في عام 2006، حين لمع نجم حسن نصر الله أمين عام هذا الحزب. مع التركيز على أثر المواجهات الطائفية لإسماعيليّي مصياف مع بعض علويّي القرى المجاورة، عام 2005، حين هاجم مئات الشبّان الريفيين الغاضبين المدينة، إثر شجارٍ بين سائقي حافلاتٍ، وأحرقوا بعض ممتلكات السكان فيها، قبل أن تتدخل أجهزة الأمن لتسوية القضية. كانت تسوية المخابرات قسريةً وسطحيةً لم تعالج -يصعب أن تعالج- الأسباب الأساسية لهذه المواجهات. مما خلّف مشاعر إذلالٍ وهدر كرامةٍ جمعية، تعافت جزئياً بصعود نجم حزب الله (الشيعة الأصليين) في حرب حزيران في السنة اللاحقة، ليكون النصر المزعوم للحزب الخمينيّ مفخرةً إسماعيليةً على خصومهم القريبين -الإسماعيليون جزءٌ معترفٌ به من الشيعة، بخلاف العلويين- في مناخٍ تنافسيٍّ غير ودود. ولتنطلق، في ظلّ الإعجاب الكبير بحزب إيران اللبنانيّ، موجة التشيع الثانية، وهي الأهمّ من ناحية التغلغل البطيء والمدروس في بنية المجتمع المصيافيّ.

لم يصدر عن المرجعية الإسماعيلية المحلية، ممثلةً بالشيخ غسان إسماعيل، موقفٌ إزاء ظاهرة التشيع الاثني عشريّ المتنامية في مجتمع رعيته. وقلّص من الحاجة إلى موقفٍ حرصُ المؤمنين الجدد على عدم إثارة الانتباه في سلوكهم العام؛ فلم يتهم منتقلٌ إلى المذهب الجديد عائلته أو أصدقاءه بالضلالة، ولم تحاول محجبةٌ محدثةٌ مطالبة شقيقاتها أو صديقاتها المتحرّرات أن يكنّ أكثر حشمةً في لباسهنّ. مما جعل حملة التشيّع، في انطلاقتها الثانية في تلك السنوات، تبدو هادئةً وغير خطرةٍ، في جوٍّ دينيٍّ أوسع كان المفتي أحمد حسّون وعضو مجلس الشعب السابق محمد حبش يسخّفان فيه التباينات العميقة بين الطوائف الإسلامية، إلى الدرجة التي بدت فيها مجرّد مناكفات أشقاء.

بالعودة إلى المثقف الحزين وأصدقائه المتذمّرين مما حدث ويحدث في هذا السياق، يحاول الرجل، وهو يتحدّث عن تاريخ المدينة الحديث، أن يميّز طبقاتٍ غير متمايزةٍ بالفعل في مجتمعها. فيلاحظ -بشكلٍ صائب- أن العائلات المتحدّرة من جذور الأمراء الدينيين والسياسيين التاريخيين للطائفة هي الأكثر تحصيناً في وجه "الغزو الاثني العشريّ" لمصياف، إذ لم يتحول من أبناء "الأمّار" أحدٌ، كما يؤكد المثقف وصديقه المراقب لأنشطة جامع الرسول الأعظم. وأخيراً، يبدي كلاهما لوم محبٍّ لإمام أشقائهم من إسماعيليّي سلمية، الذي يترفع عن فعل شيءٍ عمليٍّ، تاركاً فرع الطائفة غير التابع له في مصياف يواجه خبث المشروع الإيرانيّ وحيداً.

موظّفو «الأزمة» السورية
من أين تؤكل الكتف؟!

عمر الباشا

ينسحبون بهدوءٍ من وظائفهم ومكاتبهم في دمشق وسواها، أو في المَهاجر. يجدون الوقت الكافي لترتيب ربطات عنقهم التي ستستبدل خلال العام القادم في عنتاب أو إسطنبول وما قد يتيسّر من أسفارٍ هنا وهناك. لن يهملوا شيئاً، ولكن أهمّ ما يجب أن تحمله حقيبة اليد هو السيرة الذاتية والشهادات وسجلات الأعمال. إلى من يهمّه الأمر... الخبراء قادمون!

سيبدو «شباب الثورة» (انظر المقال الخاصّ بهم في العدد السابق) مجرّد متسكّعين بلهاء وباحثين عن «الخرجيّات» أمام من تمرّسوا طويلاً في أكل الأكتاف. ولكن، ماذا فعل هؤلاء الشباب؟!! وماذا يملكون عدا الحماس؟ لقد اثبتوا أن «الشعب السوريّ حيٌّ»... شكراً! ولكن المرحلة الآن مرحلة بناء، لا مرحلة مظاهراتٍ وخطاباتٍ وتشنّجٍ وقلة بصيرة! فليقنع الشبّان بتقاعدٍ مبكرٍ على صفحات الفايسبوك وفي بارات المنافي الإقليمية ودول اللجوء الأوربيّ... فليكتبوا الشعر... ليتفرّغوا لصناعة الأفلام. أما بناء «المؤسّسات» فله رجاله؛ خبراء التخطيط والهيكلة؛ رؤساء المكاتب ومهندسوها؛ المدراء التنفيذيون؛ مديرو الموارد البشرية والتطوير والتدريب، خبراء التسويق والإعلام والمجتمع المدنيّ والأنظمة الداخلية والسلم الأهليّ والعدالة الانتقالية ومهارات التفاوض... إلخ؛ إلخ!

وفي ثورةٍ كثُر نصّابوها، والنصّابون عليها، هناك مكانٌ للجميع؛ موظّفون بعثيون أو شبه بعثيين، استغلوا جهل «رموز» المعارضة -الذين أتوا من خارج البنية الحكومية السورية، بل من خارج البلاد في مرّاتٍ كثيرةٍ- ببعض التشكيلات الإدارية والمكتبية السخيفة في سوريا الأسد؛ فقدّموا أنفسهم كـ«رجال دولةٍ» وحكم، يشرحون لمن حولهم -بهدوءٍ ونفاد صبر- الفرق بين المحاسب وأمينٍ الصندوق وآمر الصرف. و«تكنوقراط» ملّموا على عجلٍ ما حصّلوه من تجارب غير مكتملةٍ في هذه المنظمة الدولية أو تلك، وقدِموا لإنقاذ البلاد والعباد، وفي جعبتهم بضع وصفاتٍ غير ناضجةٍ، يأسفون أشدّ الأسف عند فشل تطبيقها، وينحون باللائمة على «السوريين»! وأخيراً، محتالو «بسطاتٍ» للتدريب وتنمية الموارد البشرية، بشهاداتٍ غامضةٍ من معاهد غير معروفةٍ في دبيّ.

يتغلغل هؤلاء عادةً في المفاصل المتوسّطة، مؤلفين شبكةً متساندةً وغير منظورةٍ، رغم عدم التعارف السابق، فهم يعرفون بعضهم بالرائحة. أصحاب «الثقافة الغربية» منهم يجدون طريقهم بسهولةٍ إلى المنظمات الدولية المعنية بالشأن السوريّ في عنتاب وبيروت، مستقرّين بارتياحٍ على المقاعد الوثيرة التي خصّصتها هذه المؤسّسات للخبراء المحليين، بسبب حاجز اللغة وفوارق الثقافة. أما أبناء دولة البعث فيركّزون سهام طموحاتهم على الحكومة المؤقتة وما يشبهها، فهي المؤسّسات «الوطنيّة» التي يجب أن يزوّدوها بخبراتهم، في كتابة التقارير والفساد والمحسوبيات.

وبخلاف من فسَدت روحه من شباب الثورة، فصار باحثاً أرعن عن المال بقصد الاستهلاك والتفاخر وعيش ما كان يشاهده في الأفلام الأمريكية من حياة الشباب؛ يسلك «خبراؤنا» مسالك أحكم تجاه الدخول العالية التي يحصّلونها. فقد أنبأتهم غريزة الكسب النامية أن لا ضمانات في هذا الوضع المضطرب والمتقلّب، وأن لا

أحد يعلم بالموعد المفاجئ لـ«تسكير الحنفية» القطرية أو السعودية، أو لقرارٍ مباغتٍ من المكتب الرئيسيّ للمنظمة بتصفية أعمالها أو تقليص عدد موظفيها. ولذلك كان لا بدّ من «الادّخار»!

العمل في مجال الإغاثة جيدٌ، فهو يؤمّن لك ربحاً «مشروعاً» لتعيش، وتدّخر. أو فلتنظّم كشوفاتٍ بأسماء الشهداء والمعتقلين والمفقودين والمصابين، قدّمها للمنظمات الحقوقية، وادّخر. شارك في الندوات عن تشرّد الأطفال وانقطاعهم عن الدراسة، وأسهم فيها بما لديك من إحصاءاتٍ قديمةٍ حملتها من دمشق، فهذا وقت تحويلها إلى مدّخرات. لا ضير في كلّ ذلك، فخبراؤنا في حقيقة الموقف السياسيّ رماديون، لا تعنيهم الثورة وقد يكونون إلى النظام أقرب، فهناك منبع ما يغرمون به من بيروقراطيةٍ وإخصاء. وعند التبسّط في أحاديث الأمسيات على العشاء، بعد يوم طويلٍ من تداول الأكتاف وبناء العلاقات وقراءة ما بين السطور وترصّد الفرص البازغة؛ ستفلت منهم كلماتٌ وعلاماتٌ تدلّ على الاستياء من الثورة برمّتها، بل الشماتة بها حين تقضمها أنياب داعش الدموية. فأبناء «الدولة» سيظلون عبيد أية «دولةٍ» وعبّادها، وسيفضّلونها على الدوام على أيّ اندفاعٍ حرّ يخرّب المكتب!

السيادة الوطنية المسيّسة بين النظام والمعارضة

وضاح بيطار

في عمليةٍ عسكريةٍ كبيرةٍ، استغرق التحضير لها شهوراً، قامت وحداتٌ من الجيش التركيّ بنقل ما يُعتقد أنه رفاتُ الجدّ الأقدم لسلالة آل عثمان، سليمان شاه، من موقعه الواقع قرب منبج، على عمق 33 كيلومتراً داخل الأراضي السورية، إلى داخل الأراضي التركية. على أن يُنقل لاحقاً إلى ضريحٍ مؤقتٍ داخل الأراضي السورية، جارٍ العمل على إنشائه فوق أرضٍ زراعيةٍ قرب بلدة عين العرب/ كوباني.

جاءت ردّة فعل المعارضة السورية على هذه العملية في تصريح لرئيس الائتلاف الوطنيّ، خالد خوجة، قال فيه إن: "عملية سليمان شاه كانت ضمن الإطار القانونيّ، حيث تحرّكت تركيا ضمن الحدود القانونية حسب المعاهدات والمواثيق الدولية، وضمن علم الائتلاف رسمياً، وفي إطار التنسيق مع الجيش الحرّ".

يبدو، للوهلة الأولى، أن رئيس الائتلاف قد بذل كلّ ما في وسعه من ذرائع لإضفاء الشرعية على العملية العسكرية التركية. وهذا أمرٌ مفهومٌ بالنظر إلى العلاقة المميّزة التي تربط أطرافاً مهمةً في الائتلاف بالحكومة التركية التي وضعت مهمة إسقاط نظام الأسد الكيماويّ صراحةً ضمن أجندتها الوطنية. لكن غير المفهوم هو غياب أيّ كلام عن السيادة الوطنية في تصريح خوجة، حتّى لو كان بالمفهوم المجرّد للسيادة، نظراً لضياعها الواقعيّ التامّ بسبب ما فعله النظام بها على مدى السنوات الأربع الماضية.

المفارقة أن النظام الذي استتبع سوريا تماماً للسيادة الإيرانية، وفقد السيطرة على جميع حدوده ومعابره، وعلى سبعين في المئة من أراضي الدولة السورية، هو الذي يجعجع بالسيادة المزعومة، مقابل غياب هذا المفهوم تماماً لدى الإطار المفترض للمعارضة، بسبب تسييس الطرفين لمفهوم السيادة الوطنية. فالنظام ينسى هذا المفهوم إذا تعلق الأمر بخرقها من قبل حلفائه الإيرانيين وأتباعهم من الميليشيات الشيعية، ويتذكره حين يتعلق الأمر بأعدائه السوريين أو الأجانب سواءً بسواء. وبالمقابل، يتحدث المعارضون عن احتلالٍ إيرانيٍّ لسوريا، وينسون السيادة الوطنية تماماً إذا تعلق الأمر بخرقٍ تركيٍّ كما حدث في عملية "شاه فرات".

نظراً للظروف الملموسة التي تمرّ بها سوريا، ليس مطلوباً من المعارضة أن تسجّل رفضها للعملية التركية. بل أكثر من ذلك، قد يمكن تفهّم قبولها بدوافع الحليف التركيّ في إنقاذ القيمة الرمزية للضريح من هجوم محتملٍ من داعش. لكن الإعلان عن "القانونية" المزعومة للعملية ليس من شأن المعارضة، في الوقت الذي كشفت فيه أصواتٌ رصينةٌ ومحترمةٌ في الرأي العامّ التركيّ -من خارج الحكومة- عن الخرق الصريح الذي شكلته العملية العسكرية للقانون الدوليّ.

وكالة الأناضول

ذلك أن معاهدةً فرنسيةً-تركيةً، تمّ التوقيع عليها في العام 1921، حين كانت فرنسا منتدبةً من عصبة الأمم على سوريا بعدما تفككت الامبراطورية العثمانية، أقرّت بملكية تركيا لقطعة أرض قرب قلعة جعبر، داخل الأراضي السورية، يقوم عليها الضريح المفترض لسليمان شاه، مع حق الدولة التركية بتأمين الحماية اللازمة له، وما يستتبع ذلك من أمورٍ لوجستية. وفي العام 1973 تمّ نقل الضريح إلى مكانه الحاليّ بسبب احتمال غمره بمياه سدّ الفرات، بموجب اتفاقٍ بين الدولتين. إنها أرضٌ محاطةٌ تماماً بأراضٍ خاضعةٍ للسيادة السورية، ينطبق عليها ما ينطبق على مباني السفارات والقنصليات، التي يخضع العاملون فيها لقوانين الدولة المضيفة ما إن يخرجوا من حرم السفارة أو القنصلية. ولا يشبه الوضع القانونيّ لضريح سليمان شاه وضع لواء الإسكندرون، الذي مُنح لتركيا أيضاً من قبل المحتلّ الفرنسيّ بموجب معاهدةٍ بين الدولتين، وقد بات جزءاً من الأراضي التركية يسمّى اليوم "ولاية هاتاي".

وكما لا يحقّ لأية دولةٍ نقل سفارتها من مكانٍ إلى آخر بغير موافقة الدولة المضيفة، فلا يحقّ للحكومة التركية نقل ضريح سليمان شاه إلى مكانٍ آخر داخل الأراضي السورية بقرارٍ أحاديٍّ. صحيحٌ أن حكومة نظام الأسد الكيماويّ فقدت شرعيتها لدى غالبية السوريين، كما لدى مئة دولةٍ من الدول الأعضاء في الأمم المتحدة، لكن هذا لا يضفي الشرعية القانونية على عملية نقل الضريح. وإذا كان يمكن تبرير نقله المؤقت إلى داخل الأراضي التركية بالنظر إلى الخطر الإرهابيّ المحتمل عليه، فلا وجه قانونياً لتبرير إقامة ضريحٍ جديدٍ لسليمان شاه داخل الأراضي السورية. وهو ما تقوم به الحكومة التركية على قطعة أرضٍ زراعيةٍ يملكها فلاحٌ كرديٌّ من أبناء قريةٍ أشمة الحدودية، لم يُستأذن في الاستيلاء على أرضه ولا تمّ تعويضه.

في وداع يشار كمال

بكر صدقي

رحل الكاتب الكرديّ-التركيّ الكبير يشار كمال، عن 92 عاماً، بعد صراعٍ طويلٍ مع المرض. يمكن القول إن قلةً من الكتاب يمكن أن تُجمِع تركيا، بكلّ تنوّعها وتناقضاتها الداخلية، على الحزن على رحيلهم. هذا ما حدث بالنسبة لـ"يشار آبيه"، كما يكنّى تحبباً، بالنظر إلى عمره وعمره الأدبيّ الذي أتاح لأجيالٍ عدّةٍ من مثقفي تركيا أن يتربّوا على أدبه وعلى القيم التي بثها فيه.

قرأتُ "إينجة ميمد" ("محمد الناحل" في الترجمة العربية) في سنّ اليفاع، وكانت من الروايات التي أثرت بي بقوّة. تجوّلتُ، مع ذلك الهارب الصغير من ظلم الآغا، في مستنقعات "تشوكوروفا" المميتة بحرِّها وببعوضها الضخم "ذي العظام"! وفي جبال طوروس الشاهقة ومرتفعات "آنافارزا" الصخرية القاحلة، حيث لا تعيش إلا النسور والجوارح. غطستُ، إلى خصري، في المستنقعات. وحملتُ بندقيتي وجعبة ذخيرتي ومضيتُ من جبلٍ إلى آخر ومن وادٍ إلى حرش، بلا طعام وماءٍ لساعاتٍ طويلة إلى أن أصل إلى قريةٍ آمنةٍ من ظلم "عبدي" آغا وعناصر الدرك، فأنال كسرة خبزٍ وساعة نوم.

هكذا دخلتُ عالم يشار كمال، في عمرٍ لم يُتح لي بعدُ الكثير من القراءات. شكلتِ الملحمة البطولية لإينجة ميمد، بالنسبة إلى وعيي الطريّ، امتداداً لقصص الأطفال التي تنقسم شخصياتها بين ممثلي الخير وممثلي الشرّ. لكن "إينجة ميمد" لم يكن بطلاً إيجابياً مجرّداً تجريد فكرة الخير، بل شخصاً عادياً، ممعناً في العادية، في بيئةٍ ممعنةٍ في الواقعية تشمّ رائحتها وترى ألوانها المختلفة عن ألوان صور كتب الأطفال. ليس لدينا، في عالم يشار كمال، الأحمر المجرّد أو المحض، ومثله الأبيض والأخضر والأزرق وباقي ألوان الطيف.. بل لون التراب ولون الحجر، لون الغصن اليابس ولون تلك العشبة المحدّدة الأخضر، وتدرّجاتٌ مختلفةٌ من الرماديّ والقرميديّ والأزرق.. لون المطر، في رواياته، على سبيل المثال، يتحوّل من الأصفر الباهت إلى الأخضر المعتم إلى الأرجوانيّ! لون البحر، في رواياته، ليس أزرق! وللغيمة أطوارٌ مدهشة. تعلمتُ "قراءة" الغيوم من يشار كمال!

بيئة يشار كمال الاجتماعية لا تختلف كثيراً، في إدهاشها، عن بيئته الطبيعية الموصوف بعض وجوهها أعلاه. إنه عالم القرى الصغيرة الضائعة بين الجبال في معزلٍ عن العالم الكبير. بشرٌ من لحم ودم يكافحون، بإمكاناتهم ومواردهم المحدودة، شظف العيش وقسوة الطبيعة وظلم نظام الإقطاع المدعوم من الدولة (ممثلةً بالدرك أو الجندرمة). هؤلاء المسلحون الشرعيون مهمتهم الوحيدة هي تأمين خضوع الناس للسيد صاحب الأرض، وقمع أية شرارة تمرّدٍ فيهم عند الحاجة. في الواقع، لا يحتاج عبدي بيك كثيراً إلى الدولة ومسلحيها الشرعيين، بل لديه أزلامه المسلحون ("شبّيحته" بلغة زمن الثورة السورية) من بين شبان تلك القرى نفسها، يقومون بحمايته ويتنمّرون على بؤساء تلك القرى الجبلية النائية. فقط حين يخرج الأمر على سيطرته، تدخل قوّات الدرك على الخط مباشرةً.

رغم انتمائي إلى بيئةٍ ريفيةٍ جبليةٍ كرديةٍ في أقصى الشمال السوريّ، كان عالم "إينجة ميمد"، بالنسبة إليّ، أقرب إلى الخيال والأسطورة، خيالٍ وأسطورة شديدا الواقعية! بل أكثر واقعيةً من العالم الذي أعرفه بحواسي المباشرة. قد لا تكون شخصيات الرواية أو مجرى الأحداث الاعتيادية في حياتها هو الخياليّ، ولا حتى تلك البيئة الطبيعية التي لم أعرفها بصورةٍ مباشرة. ما يضفي الخيالية، وبالقدر نفسه الجاذبية الشديدة، على عالم يشار كمال إنما هو روح التمرّد في أبطاله. التمرّد في وجه الظلم ودفاعاً عن غريزة الكرامة البشرية.

تجوّل يشار كمال، سنواتٍ، في سهول الأناضول وجبالها، يصغي إلى حكايات الفلاحين وأساطيرهم الشفوية المنقولة عبر الأجيال، ووظّف كلّ ذلك في نسج رواياته وقصصه. فكانت هذه النتيجة الغريبة: تحوّلت حكاياته، وتحوّل أبطاله بدورهم، إلى أساطير حديثةٍ تتناقلها الأجيال. أكثر من مرّةٍ شاعت أخبارٌ، تناقلتها الصحف، عن "العثور على قبر إينجة ميمد الضائع"! ففي كلّ جزءٍ من أجزاء الرواية التي تحوّلت، عبر عقودٍ من السنوات، إلى رباعيةٍ، تنتهي السردية بموتٍ ملتبسٍ لإينجة ميمد، ليبعث من جديد في الجزء التالي، وهكذا.. كان الكاتب الراحل يعلق على تلك الشائعات باسماً: "لا يمكن لإينجة ميمد أن يموت! لا يمكنكم قتله!".

صحيح. فالتمرّد على الظلم، والدفاع عن الكرامة، والتوق إلى الحرية، لا يمكنها أن تموت. لا يمكن لأحدٍ أن يقتلها!

مات يشار كمال، عاش إينجة ميمد!

أثرياء العرب يبخسون اللاجئين السوريين حقّهم

باري لاندو/ مجلة Counterpunch الأمريكية/ 24 شباط 2015
ترجمة مأمون حلبي

خلقت الكارثة في سورية أسوأ أزمة لاجئين عرفها العالم منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، حسب ما يقول رئيس مفوضية اللاجئين في الأمم المتحدة. ومن سخريات الأمور أن هذه المأساة تكشف عن ضآلة إسهام بعض الناس الأكثر ثراءً في العالم، الذين يتزعّمون دول الخليج الغنية بالنفط.

في الحقيقة، كان باستطاعة أيّة من دول الخليج، وبأقلّ من 1% من أموالها، أن تقدّم كلّ مبلغ الـ1،266 مليار دولار الذي حاولت مفوضية اللاجئين أن تجمعه العام الماضي لإغاثة اللاجئين السوريين ولم تنجح في ذلك. وانتهت المفوضية في عام 2014 بعجز بنسبة 37% عن تحقيق هدفها. قد يظنّ المرء أن أولئك المشايخ والأمراء الذين تغمرهم البركة كانوا، ولا بدّ، منتظمين في طابور ليساندوا محاولات مفوضية اللاجئين لتخفيف الكارثة التي لحقت بالملايين من إخوانهم العرب السنة، إلا أن ظناً من هذا النوع غير صحيح.

الكويت، كدولة مانحة، كانت استثناءً نوعاً ما. فقد قدّمت 93 مليون دولار لمفوضية اللاجئين في عام 2014. ويُعدّ هذا المبلغ ثالث أكبر مساهمة بعد الولايات المتحدة (303 مليون دولار) والاتحاد الأوروبيّ (146 مليون دولار). من ناحية أخرى، فإن مساهمة الكويت هذه كانت أكبر مما قدّمته كلّ دول الخليج الأخرى مجتمعة.

وليس السبب في هذا أن الهبوط الدراماتيكيّ في أسعار النفط مؤخراً قد أفرغ خزائن تلك الدول. فالقطريون، مثلاً، الذين لديهم ثروةٌ ضخمةٌ تقدّر بـ250 مليار دولار، يستمرّون في التهالك على شراء الفنادق والشركات وأندية كرة القدم وعقارات ومباني ضخمةً في شتى أنحاء العالم. ما هو مقدار ما أسهم به القطريون في تلك الحملة، وهم الذين لديهم ثاني أكبر دخل فردٍ في العالم (104000 دولار في العام)؟ لقد قدّموا 26 مليون دولار؛ أي أقلّ بكثير من ألمانيا (42 مليون دولار) أو اليابان (34 مليون دولار). وهذا المبلغ أقلّ بكثيرٍ أيضاً من الغرامة البالغة 58 مليون دولار، التي أُلزمت العائلة القطرية المالكة بدفعها بسبب احتيالٍ غير قانونيٍّ للتهرّب من الضرائب على ممتلكاتٍ لهم في لندن اشتروها من وزارة الدفاع البريطانية بمبلغ هو فقط 1,5 مليار دولار، ناهيك عن 120 مليون دولار أنفقتها القوات المسلحة القطرية لشراء فندق رينانسنس في مدينة برشلونة.

وتحت تصرّف الأمراء في الإمارات العربية المتحدة ثروةٌ تبلغ 773 مليار دولار. ما هو مقدار مساهمتهم في حملة جمع الأموال للاجئين السوريين؟ 4,8 مليون دولار. أي أقلّ من فنلندا بكثير، (7,84 مليون دولار).

والآن ماذا عن السعوديين؟ حاكمهم الجديد، الملك سلمان، يدعم منصبه الجديد وسلطة عائلته بأُعطياتٍ كبيرةٍ تلت تتويجه، بلغت حتى الآن 32 مليار دولار

جاد بها على معظم سكان بلده. السعوديون يُنفقون المال الآن؛ بعضهم يشترون هواتف نقالةً وحقائب يدوية، وبعضهم يقومون برحلاتٍ إلى الخارج. لقد سدّدوا ديونهم وتبرّعوا للجمعيات الخيرية واشتروا أطواقاً ذهبيةً لأمهاتهم. بعض الرجال خصّصوا نقوداً ليتّخذوا لأنفسهم زوجةً أولى أو ثانيةً أو ثالثة. وكان السعوديون كرماء أيضاً مع النظام العسكريّ في مصر. فقد تدبّروا، بالاشتراك مع دولٍ خليجيةٍ أخرى، مبلغ 12 مليار دولار ليسندوا حكومة الجنرال السيسي بعد أن أطاحت بالإخوان المسلمين، الذين تكرههم السعودية وتخشاهم. ووعد السعوديون بمزيدٍ من المليارات. لكن كم دفعوا لبرنامج اللاجئين السوريين الذي تديره المفوضية؟ في عام 2014، قدّم السعوديون، كمبلغٍ إجماليٍّ، 2,9 مليون دولار، وهو مبلغٌ لا يكفي لشراء شقةٍ بغرفة نوم واحدةٍ في بلغرافيا (حيٌّ في لندن) هذه الأيام. حتى الدانمارك، البلد الصغير جداً، قدّمت أكثر، (6,2 مليون دولار).

هكذا كان الأمر العام الماضي. لكن كيف تسير الحملة من أجل اللاجئين السوريين في هذا العام، مع تفاقم الأزمة؟ بالنسبة إلى العام الحاليّ تحاول مفوضية اللاجئين جمع مبلغ 1,342 مليار دولار. اعتباراً من 16 شباط، ومع صورٍ تلفزيونيةٍ لأطفالٍ سوريين في أماكن إيواءٍ رثةٍ يموتون نتيجة ظروف الطقس القاسية، تلقت المفوضية تعهداتٍ بمبلغ 74 مليون دولار، وهو ما يساوي فقط 6% من المبلغ المطلوب. لم تقدّم الولايات المتحدة أية تعهداتٍ ماليةٍ حتى تاريخه. كندا هي أكبر المانحين إلى الآن (أكثر من 10 مليون دولار) والاتحاد الأوروبيّ (51 مليون دولار). وماذا عن السعودية مع حاكمها الجديد السخيّ؟ لقد تعهّدت بمبلغ 2.773 مليون دولار، وهو أقلّ من المبلغ الذي قدّمته العام الماضي. أما الإمارات فقد وعدت بمبلغ 2.247 مليون دولار، وقطر بمبلغ 209 آلاف دولار، أي ما لا يساوي حتى ثمن حقيبة يدٍ متواضعةٍ من جلد التمساح في محلات آسبريز.

سورية: تجربة المدن المحرّرة

محمد عثمان

من إنجاز مركز شرارة آذار للدراسات، وإعداد صبر درويش، صدر هذا الكتاب عن دار رياض الريّس للكتب والنشر، مطلع هذا العام، حاوياً بين دفتيه ستّ دراساتٍ عن تجارب المناطق السورية المحرّرة من حكم نظام الأسد، أعدّها باحثون مختلفون.

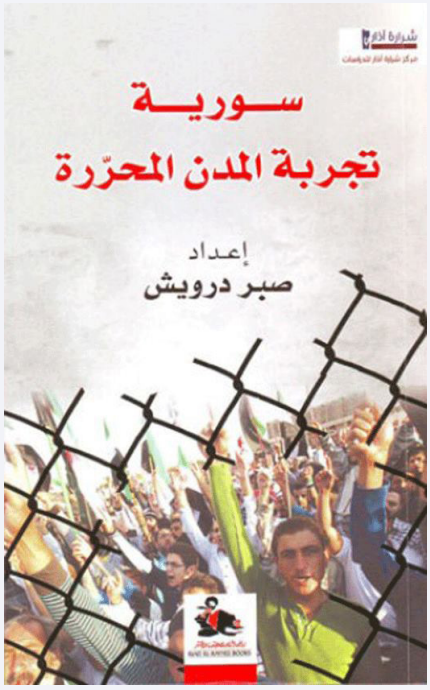

وفيما عدا مقدّمة تحرير الكتاب، وفصلٍ واحدٍ منه، تتناول الأبحاث تجارب محدّدةً لمدنٍ أو مناطق محرّرة، هي مخيم اليرموك على أطراف دمشق، ومدينة زملكا في ريفها اللصيق، ومدنٍ أخرى في محيط العاصمة، لجأت مضطرّةً إلى خيار الهدن المرير. بالإضافة إلى تجربة مدينة بنّش في ريف إدلب، وحيّ بابا عمرو بحمص.

وتحاول هذه البحوث الإجابة عن أسئلة كيفية قيام سكان هذه المناطق بإنتاج شروط حياتهم في ضوء التحرير، في مجالات المعيشة والخدمات والتعليم والصحّة والأمن والقضاء؟ وهل تبلورت، في سياق كلّ ما ذُكر، مشاريعٌ اجتماعيةٌ متكاملة؟ وكيف تعامل النظام مع هذه المناطق؟ وما طبيعة العقوبات التي فرضها عليها؟ ولماذا تعثر بناء الدولة البديلة في هذه المناطق الواسعة؟

ففي مخيّم اليرموك نجحت تجربة المدارس البديلة، التي فرضت حضورها حتى على الأونروا، رغم استهداف المدارس واستشهاد بعض الطلاب. أما تجربة المكتب الطبيّ الموحد فلم ترقَ إلى المستوى ذاته من النجاح، بسبب غياب الأطباء الاختصاصيين، بالإضافة إلى نقص التجهيزات والأدوية. وقد تميّزت تجربة زملكا بتأسيس هيئةٍ قضائيةٍ تعتمد القانون السوريّ، مع بعض التعديلات، أشرف عليها حقوقيون ومشايخ. ولكن، بعد أشهرٍ من ذلك، أخذت بعض الفصائل الإسلامية تضغط لضمّ بعض مواليها الشرعيين إلى الهيئة، تمهيداً لتحويلها إلى هيئةٍ شرعيةٍ مستتبعةٍ لهذه الكتيبة الداعمة والمسيطرة، مع تراجع باقي الكتائب نتيجة ضعف التمويل. وفي مناطق عديدةٍ من دمشق وريفها حرص النظام على تهشيم كلّ محاولات القوى والمجموعات المحلية لبناء كياناتٍ بديلة، بإمطار هذه المناطق بالصواريخ والبراميل المتفجّرة من الطيران الحربيّ، وبالقصف بعيد المدى براجمات الصواريخ والمدافع، فضلاً عن فرض الحصار المحكم ومنع دخول المواد الغذائية أو الطبية أو سواها. مما أدى إلى عجز الثوّار وتضعضع الحاضنة الشعبية للثورة، تمهيداً لفرض الهدن كخيارٍ إلزاميٍّ.

أما في مدينة بنّش فقد أدّى تعثر قيام مؤسّساتٍ مدنيةٍ حقيقيةٍ تدير شؤون السكان الأمنية والاقتصادية والاجتماعية إلى بروز الزعامات والاصطفافات العائلية من جهة، وإلى نموّ التطرّف بشكلٍ غير مسبوقٍ من جهةٍ أخرى. فصارت المدينة موطناً لتياراتٍ سلفيةٍ عديدة، مع هامشية دور الجمعية السورية للعمل المدنيّ، التي أسّسها ناشطون محليون.

وفي حين نالت التجارب السابقة حظّها من الوقت، فقد أُجهضت تجربة حيّ بابا عمرو الحمصيّ في بداياتها. إذ لم تكد تجربة المنشقين عن الجيش القامع تنتظم في كتائب لحماية المحتجّين المدنيين حتى تحرّكت قوّات الأسد لاقتحام الحيّ مهما كان الثمن، وقبل تبلور نويّات التنظيم المدنيّ البديل التي كانت آخذةً بالتشكّل.

تراجيديا الجريح الأسديّ راتب محمّد

هاجمه محتلّو منزله المدعومون، وأهانه قاضي الفرد العسكريّ، وصرخ في وجه أمّه نائب المحافظ.

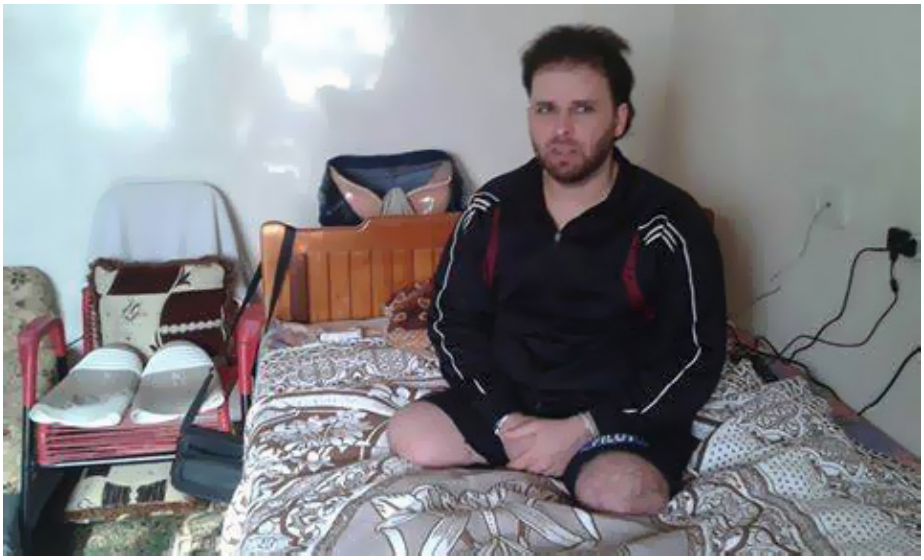

لم يدُر في خلَد الجندي الأسديّ الجريح، راتب يوسف محمد، أن يميل به الزمن ذات يوم إلى درجةٍ تحوّل معها إلى متسولٍ بلا ساقَين، بعد عامين من إصابته على جبهة حيّ القابون على أطراف دمشق. كان راتب قبل ذلك جندياً مزهوّاً بانتمائه إلى اللواء (105) حرس جمهوريّ، المعروف باللواء القائد. شارك في معارك هذا اللواء العنيفة في درعا وريف دمشق، قبل أن تنتهي سيرته القتالية في تلك المعركة المشؤومة في القابون. لتدخل حياته في أشدّ فصولها مأساويةً؛ فأولاً أصيب شقيقه المرافق له في مشفى تشرين بالتهاب الكبد الفيروسيّ المميت، لولا تدخل طبيبٍ "فهمان" أنقذ المريض من "حيونة" الأطبّاء العسكريين، فاكتشف المرض وحدّد الدواء الذي يكلّف العائلة 16500 ليرةٍ شهرياً، بحسب ما تقول الأمّ في رسالة استعطافٍ إلى الصفحات المؤيدة على الفايسبوك. ثم يصاب الأب بجلطتين متتاليتين بعد أن تحطّم قلبه على أولاده، مصاب المعركة ومصاب الالتهاب والثالث الغائب على جبهة قتالٍ بعيدة. وأخيراً، يرفض مستأجرو بيتٍ تملكه العائلة، كان راتب قد اشتراه في وقتٍ سابقٍ بقرضٍ مصرفيٍّ، أن يرفعوا بدل الإيجار، كما يمتنعون عن إخلاء المنزل.

ونتيجة ذلك لم يبقَ أمام الأمّ سوى حمل صورة ابنها مبتور الساقين وطرق أبواب مسؤولي طرطوس، علّها تنجح في استعطاف أيٍّ منهم لتعيين ابنتها، خرّيجة المعهد المتوسّط، في أية وظيفة. لكن لا جدوى مع هؤلاء "الفاسدين" متحجّري القلب. بل لم تسلم الأم من الإهانة و"الطرد الأدبيّ" والتوبيخ أكثر من مرّةٍ؛ اذ صرخ في وجهها نائب المحافظ: "أبقى غير ابنك جريح بهالبلد؟!"، لتخرج من مكتبه باكيةً. وأجابها معظم المسؤولين الآخرين إجابةً واحدة: "أي شواغر"، لتعود خائبةً بعد كلّ جولةٍ على مكاتب المسؤولين، "دواعش الداخل" كما يسمّيهم المتعاطفون الفايسبوكيون مع الحكاية.

وبحسب ما تروي الأمّ في رسالتها المكرّرة على صفحاتٍ متضامنةٍ مع "البطل الجريح"، والمظلوم "اللي بوطه أشرف من راس أكبر مسؤول بطرطوس"، فإن مصيبةً أخرى نزلت بالعائلة، تمثلت في هجمةٍ من مستأجري منزل راتب المستعصين، بهدف إخافته لإسقاط دعوى الإخلاء المرفوعة ضدّهم! تتألم الأم راجيةً من الله أن تحظى بربع ساعةٍ فقط من وقت "السيد الرئيس" لتكشف له "كل شي ميصير من هالخونة المسؤولين بطرطوس"، ولتخبره عن مشهدٍ لا يتوقع أحدٌ أن يحدث في "سوريا الأسد"، وهو أن قاضي الفرد العسكريّ، أثناء الجلسة اللاحقة من قضية مستأجري البيت المستعصين، كاد يلقي بابنها في السجن بدل المعتدين، لأن الجريح اضطرّ إلى الجلوس قبل أن يسمح له القاضي بذلك، في حين جلس خصومه "المدعومون"، الذين ما زالوا "يسرحون ويمرحون بالبيت" حتى اليوم.

ومساءً، في ضيعة البريخية حيث تقيم العائلة، يحاول الجريح البائس أن يتّصل بقائده العسكريّ السابق دون جدوى، ودون أن يفهم السبب الحقيقيّ لتخفيض راتبه.

في بلدٍ آخر -يقول معلقون مؤيدون أرفع ثقافةً- يُشاد لمثل هذا "البطل" نصبٌ تذكاريّ. فهو "شهيدٌ حيٌّ" يتشرّف أيّ مسؤولٍ بزيارته والاطمئنان عليه، لا أن يرمى هكذا كما ..... بحسب أولئك المعلقين.

مجلة عين المدينة | نصف شهرية سياسية متنوعة مستقلة

- لا تعبر المقالات المنشورة عن رأي المجلة بالضرورة.
- ترحب المجلة بمساهماتكم غير المنشورة سابقاً.

فيس بوك facebook.com/3aynAlmadina
تويتر twiter.com/3aynAlmadina
www.3ayn-almadina.com | info@3ayn-almadina.com

من النشاط الطبيّ الحرّ في دير الزور

من أرشيف مشافٍ ميدانية